سلسلة شروح فضيلة الشيخ (١٩)

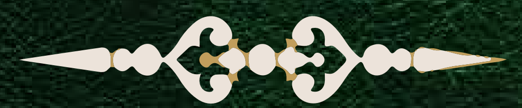




تصنيف الإمام

أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية

المتوفى سنة (٧٢٨) رحمه الله تعالى



لفضيلة الشيخ الدكتور

عبد السلام بن محمد الشويعر



الشيخ لم يراجع التفريغ















alshuwayer9







00966558883286

للإعلام بالأخطاء الطِّباعية والاستدراكات والاقتراحات؛ يرجى المراسلة على البريد التالي:

tafreeghalshuwayer@gmail.com

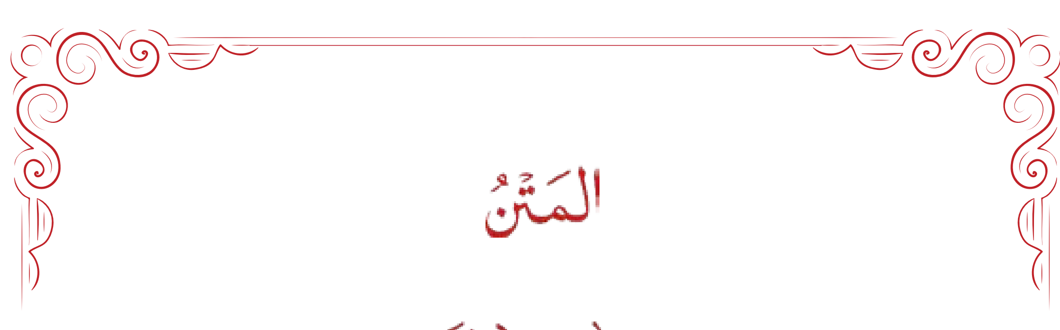
سلسلة شروح فضيلة الشيخ (١٩)

شرح
الوصية الصغرى

تصنيف الإمام
أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية
المتوفى سنة (٧٢٨) رحمه الله تعالى

لفضيلة الشيخ الدكتور
عبد السلام بن محمد الشويعر

النسخة الأولى



المَتْنُ

بسم الله الرحمن الرحيم

سؤال أبي القاسم المَغْرِبيِّ

يَتَفَضَّــل الشَّــيْخ الإمام بَقِيَّة السَّــلَفِ، وَقُدْوة الخَلَفِ، أَعْلَمُ مَنْ لَقِيتُ بِبِلاد المَشْرِق والمَغْرب، تَقِيُّ الدِّين أَبُو العَبَّاس أَحْمدُ ابن تيميَّةَ:

- بِأَنْ يُوصِيَنِي بِمَا يَكُون فيه صَلَاحُ دِيني وَدُنْيَاي.
- وَيُرْشِــدَنِي إِلَى كِتَابٍ يَكُون عَلَيْه اعْتِمَادِي في عِلْم الحديث، وَكَذِلك في غَيْره من العُلُوم الشَّرْعِيَّة.
- وَيُنَبِّهني عَلَى أَفْضَل الأَعْمال الصَّالِحَة بَعْد الوَاجبات.
- وَيُبَيِّنَ لي أَرْجحَ المكاسب.

كُلُّ ذَلِك عَلَى قَصْد الإِيماء والاختصار، والله تَعَالَى يَحْفظه.

والسَّلام الكَرِيم عَلَيْه وَرَحْمة الله وبركاته.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحبه ربنا ويرضاه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ محمدًا عبد الله ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

ثُمَّ أمَّا بعدُ:

فإنَّنا اليوم بمشيئة الله عَزَّوَجَلَّ سنقرأ ونتدارس هذا الكتاب الذي بين أيدينا وهو المسمَّى بـ: «**الوصية الصغرى**»، وهذه الرسالة أجاب بها الشَّيخ تقي الدين رَحِمَهُٱللَّهُ تَعَالَى عن سؤالٍ وصله بطلب نصيحة فاستنصحه رجلٌ فأجابه بهذه الرسالة.

وسمِّيت هذه الرسالة بـ: «**الوصية الصغرى**» تسميةً ممَّن بعد الشَّيخ تفريقًا بينها وبين وصيةٍ أخرى كتبها الشَّيخ تقي الدين لتلاميذ ومن سار على طريقة الشَّيخ عدي بن مسافر، والرسالة التي أرسلها إليهم تسمَّى بـ «**الوصية الكبرى**»، ولذلك فإنَّ كتب الشَّيخ سميت بعده بـ: «**الوصية الصغرى**» و «**الوصية الكبرى**» وهذه هي: «**الصغرى**»، وسميت «**الصغرى**» لأجل أنَّ حجمها صغير ومسائلها قليلة، ولأنَّ سائل النصيحة فيها وهو: أبو القاسم المغربي طلب الإيجاز

والاختصـار كما مرَّ معنا قبل قليل في قراءة القارئ حينما **قال السـائل**: (كُلُّ ذَلِك عَلَى قَصْد الإِيماء والاختصار).

وعادة العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَى أنَّهم يكتبون وصـــايا ونصـــائح، ثُمَّ إنَّ هذه الوصـايا والنصـائح قد يتداولها النَّاس بعدهم وتنتشـر انتشـارًا كبيرًا، وقد وُجِد العشـــرات من هذه الوصـــايا والنصـــائح التي كتبها عدد من الأعلام إمَّا كتبوها إجابةً لناصحٍ طلب النصيحة أو أن تكون كُتبت ابتداءً من غير طلب، وقد تكون كُتبت لتلميذ أو لولد كما في رسالة أبي الوليد الباجي المالكي في نصيحته لابنه، **ومثل**: رســالة أبي الفرج الجوزي في نصــيحته لابنه كذلك، وقد تكون تلك الوصية وصيةً لمن بعده بعد وفاته، ومن الوصايا التي وصلتنا بعد الوفاة وصية أبي محمَّد عبد الله بن أحمد بن قدامة الموفق رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى، فإنَّ وصــيته هذه كتبها لمن يعيش بعده ويرث ماله وعلمه وفيها نصائح عظيمة.

المقصـود: أنَّ هذه الرسـالة التي بين أيدينا رسـالة مهمة وعظيمة، طلب فيها السائل **أربعة أشياء**:

❁ **أول هذه الأمور الأربعة**: طلب بأن يوصــي بما يكون فيه صـلاح الدين والدنيا.

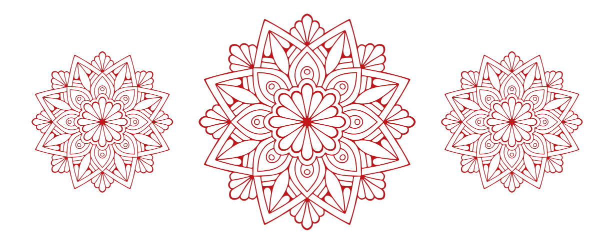
❁ **والأمر الثاني**: طلب من الشَّيخ أن يرشده إلى كتابٍ **أي**: واحدٍ، يكون عليه اعتماده في علم الحديث، ثمَّ **قال**: (وَكَذِلك في غَيْره من العُلُوم الشَّرْعِيَّة).

❁ **والثالثة**: حينما **قال**: (وَيُنَبِّهني عَلَى أَفْضَل الأَعْمال الصَّالِحَة بَعْد الوَاجبات).

❁ **والرابعة**: بيَّن له ما هو أرجح المكاسب، وقصده بأرجح المكاسب **أي**: أفضل المكسب الذي يكسبه في الدنيا من المال والرزق، ما هو الطريق الراجح من هذه الطرق الذي يرجح له أن يكتسب به المال؟

وقد أجاد الشَّيخ تقي الدين في الإجابة عن هذه الأمور الأربع، فلم يخل بأيٍ من الأسئلة الأربعة، بل أجاب عنها جميعًا ولكنه قدَّم بعضها على بعض، وإنَّما أجاب بها كما سُئل عنها، ولم ينشغل بأحدها عن الباقي، وهذه الأسئلة الأربعة فيها جِماع الأمور كلِّها فإنَّ الوصية بما فيه صلاح الدين والدنيا تشمل له كل شيء، والكتاب فيه العلم وأفضل الأعمال هذا يتعلَّق بأعمال الجوارح للآدمي وأفضل الأكساب، فسأله عن ثلاثة أشياء: أفضل العلم وهي: الكتب التي يتعلَّم بها، وأفضل الأعمال التي يتقرَّب بها إلى الله، وأفضل وسائل كسب الرزق التي يكتسب بها الرزق في حياته الدنيا، وقد أجابه الشَّيخ تقي الدين إجابة ناصحٍ كما

سيأتي في كلامه بعد قليل إن شاء الله.



المَتْنُ

فأجاب:

الحَمْد لله رَبِّ العالمين.

أَمَّا الوَصِيَّة: فَمَا أَعْلَم وَصِيَّةً أَنْفَعَ مِن وَصِيَّة الله وَرَسُوله لِمَنْ عَقَلَها وَاتَّبَعها؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾ [النِّساء:١٣١].

وَوَصَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعَاذًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَمَّا بَعَثَه إِلَى اليَمَن؛ فقال: «**يَا مُعَاذُ؛ اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**».

وَكَان مُعَاذٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْزِلَةٍ عَلِيَّةٍ؛ فَإِنَّه قال له: «يَا مُعَاذُ؛ وَاللهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ»، وَكَان يُرْدِفُه وَرَاءَه.

وَرُوِي فيه: أَنَّه «**أَعْلَمُ الأُمَّةِ بِالحَلَالِ وَالحَرَامِ**». وأَنَّه «**يُحْشَر أَمَامَ العُلَمَاءِ بِرَتْوَةٍ**» أي بِخُطْوةٍ.

وَمِنْ فَضْله: أَنَّه بَعَثَه النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُبَلِّغًا عَنْه دَاعِيًا، وَمُفَقِّهًا، وَمُفْتِيًا، وَحَاكِمًا إِلَى أَهْلِ اليَمن.

وَكَان يُشَبِّهه بِإِبْرَاهِيمَ الخَلِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِبْرَاهِيمُ إِمَامُ النَّاس.

وَكَان ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: «إِنَّ مُعَاذًا كَان أُمَّةً قَانِتًا للهِ حَنِيفًا، وَلَمْ يَكُ من المُشْرِكين»؛ تَشْبِيهًا له بِإبراهيمَ.

ثُمَّ إِنَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَّاه هَذِه الوَصِيَّةَ؛ فَعُلِم أَنَّها جَامِعةٌ، وَهِي كَذَلِك لِمَنْ عَقَلَها، مَعَ أَنَّهَا تَفْسِير الوَصِيَّةِ القُرْآنِيَّة.

أَمَّا بَيَان جَمْعِها: فَلأَنَّ العَبْد عَلَيْه حَقَّان:

- حَقٌّ لله عَزَّ وَجَلَّ.
- وَحَقٌّ لِعِبَاده.

ثُمَّ الحَقُّ الَّذي عَلَيْه لَا بُدَّ أَنْ يُخِلَّ بِبَعْضِه أَحْيانًا:

- إِمَّا بِتَرْك مَأْمُورٍ به.
- أَوْ فِعْل مَنْهِيٍّ عَنْه.

فقال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ**»؛ وَهَذه كَلِمَةٌ جَامِعةٌ.

وفي قوله: «**حَيْثُمَا كُنْتَ**» تَحْقِيقٌ لِحَاجته إِلَى التَّقْوى فِي السِّرِّ وَالعَلَانِية.

ثُمَّ قال: «**وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا**»؛ فَإِنَّ الطَّبِيبَ مَتَى تَنَاوَلَ المَرِيضُ شَيْئًا مُضِرًّا أَمَرَه بِمَا يُصْلِحه.

وَالذَّنْب لِلعَبْد كَأَنَّه أَمْرٌ حَتْمٌ.

فَالكَيِّسُ هُو الَّذي لَا يَزَال يَأْتِي مِن الحَسَنات بِمَا يَمْحو السَّيِّئَات.

وَإِنَّما قَدَّمَ فِي لَفْظ الحديث «**السَّيِّئَةَ**» - وَإِن كانت مَفْعولةً - لِأَنَّ المَقْصود هنا: (مَحْوُها)، لَا (فِعْل الحَسَنة)؛ فَصَار كَقَوْله في بول الأعرابيِّ: «**صُبُّوا عَلَيْهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ**» .

وَيَنْبَغي أَنْ تَكُون الحَسَنات مِن جِنْس السَّيِّئات؛ فَإِنَّه أَبْلَغُ فِي المَحْوِ.

والذُّنُوب يَزُول مُوجِبُها بِأَشْياءَ:

أَحدها: التَّوبة.

والثَّاني: الاستغفار مِن غَيْر تَوبةٍ؛ فَإِنَّ الله - تَعَالى - قَد يَغْفِرُ له إِجَابةً لِدُعائه وَإِنْ لَم يَتُب.

فَإِذَا اجْتَمعت التَّوْبة والاستغفار فهو الكمال.

الثَّالث: الأَعْمال الصَّالِحة المُكَفِّرة:

*** إِمَّا الكَفَّارات المُقَدَّرة:**

- كَمَا يُكفِّر المُجَامِع في رمضان.
- والمُظَاهِرُ والمُرْتَكِب لِبَعْض مَحْظُورات الحَجِّ.

- أَوْ تَارِك بَعْضِ وَاجِبَاته.

- أَوْ قَاتِل الصَّيْد بِالكَفَّارات المُقَدَّرة؛ **وَهِي أَرْبعة أَجْناسٍ**: هَدْيٌ، وَعِتْقٌ، وَصَدَقةٌ، وَصِيامٌ.

* **وَإِمَّا الكَفَّارات المُطْلَقة**: كَمَا قَال حُذَيْفةُ لِعُمَرَ: «فِتْنَة الرَّجُل فِي أَهْله وَمَالِه وَوَلَدِه يُكفِّرها الصَّلَاة، وَالصِّيَام، والصَّدَقَة، وَالأَمْر بِالمَعْروف، والنَّهْي عَن المُنْكَر».

وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذلك: القُرآن، والأَحَادِيث الصِّحَاح في التَّكْفير بـ(الصَّلوات الخَمْس، والجُمعة، والصِّيَام، والحَجِّ)، وَسَائِر الأَعْمال الَّتي يُقَال فيها: «مَنْ قَالَ كَذا، وَعَمِل كَذا = غُفِرَ لَه»، أَوْ «غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»؛ وَهِي كَثِيرةٌ لِمَنْ تَلَقَّاهَا مِن السُّنَن، خُصُوصًا مَا صُنِّف فِي فَضَائل الأعمال.

وَاعْلَم أَنَّ العِنَاية بِهَذا مِن أَشَدِّ ما بِالإنسان الحَاجةُ إليه؛ فَإِنَّ الإِنْسَانَ مِن حين يَبْلغ، خُصُوصًا فِي هَذِه الأَزْمِنة وَنَحْوها مِن أَزْمِنَة الفَترات الَّتي تُشْبِه الجَاهِلِيَّةَ مِن بَعْض الوُجُوه، فَإِنَّ الإِنْسان الَّذي يَنْشَأُ بَيْن أَهْل عِلْمٍ وَدِين قَد يَتَلَطَّخ مِن أُمُور الجَاهِلِيَّة بِعِدَّة أَشْياء؛ فَكَيْف بِغَير هذا؟!

وَفِي «الصَّحيحين» عَن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن حَديث أبي سعيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْو القُذَّةِ بِالقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ**»، قالوا: يا رسول الله؛ اليَهُود وَالنَّصارى؟ قَال: «**فَمَنْ!؟**».

هَذَا خَبرٌ تَصْدِيقُه فِي قوله تعالى: ﴿**فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا**﴾ [التَّوبة:٦٩].

وَلِهَذا شَوَاهِدُ فِي الصِّحَاح والحِسَان.

وَهَذا أَمْرٌ قد يَسْرِي فِي المُنْتَسِبين إِلى الدِّين من الخَاصَّة، كَمَا قال غير واحدٍ من السَّلَف، مِنْهم ابن عُيَيْنة.

فَإِنَّ كَثِيرًا من أحوال اليهود قَدِ ابْتُلِي به بَعْضُ المُنْتَسِبين إِلَى العِلْم، وَكَثِيرًا من أَحْوال النَّصارى قَد ابْتُلِي به بعض المُنْتَسِبين إِلَى الدِّين، كَمَا يُبْصِرُ ذَلِك مَنْ فَهِمَ دين الإِسْلَام الَّذي بَعَثَ الله بِه مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ نَزَّلَه عَلَى أَحْوَال النَّاس.

وَإِذَا كَانَ الأَمر كَذَلِك، فَمَنْ شَرَحَ الله صَدْرَهُ لِلإِسْلَام فَهُو عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّه، وَكَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَاه الله وَجَعَل لَه نُورًا يَمْشِي بِه فِي النَّاس = لَا بُدَّ أَنْ يُلَاحِظ أَحْوال الجَاهِلِيَّة وَطَرِيق الأُمَّتَيْن (المَغْضُوب عَلَيْهم، والضَّالِّين من اليَهود والنَّصَارى)؛ فَيَرى أَنْ قَد ابْتُلِي ببعض ذَلك.

فَأَنْفَعُ مَا لِلخَاصَّةِ وَالعَامَّة: العِلْمُ بِمَا يُخَلِّصُ النُّفُوس مِن هَذه الوَرطَات، وَهُو إِتْبَاع السَّيِّئَاتِ الحَسَنَات.

و(**الحَسَنات**): مَا نَدَبَ الله إِلَيْه عَلَى لِسَان خَاتَم النَّبِيِّين من الأعمال، والأَخْلاق، والصِّفَاتِ.

وَمِمَّا يُزِيل مُوجِبَ الذُّنُوب: المَصَائب المُكَفِّرة.

وَهِي كُلُّ مَا يُؤْلِم مِنْ هَمٍّ، أَوْ حُزْنٍ، أَو أَذًى فِي مَالٍ أَوْ عِرْضٍ أَو جَسَدٍ، أَوْ غَيْر ذَلك، لَكِن لَيْس هَذَا مِن فِعْل العَبْد.

فَلَمَّا قَضَى بِهَاتَيْن الكَلِمَتَيْن حَقَّ الله مِنْ عَمَل الصَّالح وَإِصْلاح الفَاسد قَال: «**وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»، وَهُو حَقُّ النَّاس.

وَجِمَاع الخُلُقِ الحَسَن مَع النَّاس: أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَك؛ بالسَّلام، والإكرام، والدُّعاء له، والاستغفار، والثَّناء عليه، والزِّيارة له، وتُعطي مَنْ حَرَمَك مِن التَّعليم، والمنفعة، والمال، وتعفو عمَّنْ ظَلَمك في دمٍ، أو مالٍ، أو عِرْضٍ.

وبعضُ هذا واجبٌ، وبعضُه مُسْتَحَبٌّ.

وَأَمَّا الخُلُق العَظِيم الَّذي وَصَفَ به مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَهُو الدِّينُ الجَامع لِجَمِيع مَا أَمَرَ الله به مُطْلَقًا؛ هَكَذَا قال مُجاهدٌ وغيره، وَهُو تَأْوِيل القُرآن؛ كما قالت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَانَ خُلُقُه القُرْآنُ»، **وحَقِيقته**: المُبَادرة إلى امتثال ما يُحِبُّه الله -تَعَالى- بِطِيبِ نَفْسٍ وَانْشِرَاح صَدْرٍ.

وَأَمَّا بَيَان أَنَّ هَذَا كُلَّه فِي وَصِيَّة الله: فهو أَنَّ اسْم (تَقْوَى الله) يَجْمَع فِعْلَ كُلِّ مَا أَمَرَ الله بِه إِيجَابًا وَاسْتِحْبَابًا، وَمَا نَهَى عَنْه تَحْرِيمًا وَتَنْزِيهًا.

وَهَذا يَجْمَع حُقوقَ اللهِ وَحُقوقَ العِبادِ.

لَكِنْ لَمَّا كَان تَارَةً يَعْني بـ (التَّقْوى) خَشْيةَ العَذَابِ المُقْتَضِيةِ للانْكِفَاف عن المَحارِمِ = جَاء مُفَسَّرًا في حديث مُعاذٍ، وَكَذلك في حديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا الَّذي رواه التِّرمذيُّ وَصَحَّحه: قيلَ: يا رسول اللهِ؛ مَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ؟ قَال: «**تَقْوَى اللهِ، وَحُسْنُ الخُلُقِ**»، قِيل: وَمَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ؟ قال: «**الأَجْوَفَانِ: الفَمُ، وَالفَرْجُ**».

وَفِي «الصَّحيح» عَن عَبدِ الله بن عُمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَكْمَلُ المُؤْمِنِينَ إِيمَانًا: أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**»؛ فَجعَل كَمالَ الإيمان في كَمَالِ حُسْن الخُلُق.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الإيمانَ كُلَّه تَقْوى الله.

وَتَفْصيلُ أُصولِ التَّقْوى وَفُرُوعِها لَا يَحْتَمِلُه هذا المَوْضعُ؛ فَإِنَّها الدِّين كُلُّه.

لَكِن يَنْبُوعُ الخَيْرِ وَأَصْلُه: إِخْلَاصُ العَبْد لِرَبِّه عِبادَةً وَاسْتِعَانةً؛ كما فِي قوله: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [**الفاتحة**]، وفِي قوله: ﴿**فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ**﴾ [هود:١٢٣]، وفِي قوله: ﴿**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ [الشُّورى:١٠]، وفِي قوله: ﴿**فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ**﴾ [**العنكبوت**:١٧]؛ بِحَيْث يَقطَع العَبْدُ تَعَلُّقَ قَلْبه مِنَ المَخْلُوقين انْتِفَاعًا بِهم أَوْ عَمَلًا لِأَجْلهم، وَيَجْعل هِمَّتَه رَبَّه - تعَالى -؛ وَذلِك بِمُلَازَمة الدُّعاء لَه فِي كُلِّ مَطْلُوبٍ؛ مِن فَاقَةٍ، وَحَاجَةٍ، وَمَخَافَةٍ، وغير ذلك، وَالعَمَلِ لَه بِكُلِّ مَحْبوبٍ.

وَمَنْ أَحْكَمَ هَذا فَلَا يُمْكِن أَنْ يُوصَفَ مَا يُعْقِبُه ذلك.

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنه مِن أَفْضَلِ الأَعْمال بَعد الفَرَائض: فَإِنَّه يَخْتَلِف بِاخْتِلَاف النَّاسِ فِيما يَقْدِرُون عَلَيْه وَمَا يُنَاسِب أَوْقَاتِهم؛ فَلَا يُمْكِن فِيه جَوَابٌ جَامِعٌ مُفَصَّلٌ لِكُلِّ أَحدٍ.

لَكِن مِمَّا هو كالإِجماع بَيْن العَلماء بالله وَأَمْره: أَنَّ مُلَازَمة ذِكْر الله دَائِمًا هو أَفْضَل مَا شَغَلَ العَبْدُ به نَفْسَه فِي الجُملة.

وَعلى ذَلِك دَلَّ حَدِيث أَبي هُرَيْرةَ الَّذي رواه مسلمٌ: «**سَبَقَ المُفَرِّدُونَ**»، قالوا: يا رسول الله؛ وَمَنْ المُفَرِّدون؟ قال: «**الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ**».

وَفِيما رَوَاه أَبُو داودَ عن أبي الدَّرْداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّه قال: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُم مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ، وَمِن أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُم فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟**» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُول الله! قال: «**ذِكْرُ اللهِ**».

وَالدَّلَائِل القُرْآنِيَّةُ وَالإِيمَانِيَّةُ - بَصَرًا وَخَبَرًا وَنَظَرًا - عَلى ذَلِك كَثِيرةٌ.

وَأَقَلُّ ذَلِك: أَنْ يُلَازِم العَبْد الأَذْكَارَ المَأْثُورةَ عَن مُعَلِّمِ الخَيْر وَإِمَام المُتَّقِين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كالأَذْكار المُؤَقَّتة في أَوَّل النَّهار وآخِره، وَعِنْد أَخْذ المَضْجَع، وَعِنْد الاسْتِيقَاظ من المَنَام، وَأَدْبَار الصَّلَوات.

وَالأَذْكَار المُقَيَّدة؛ مِثْل: مَا يُقَال عِنْد الأَكْل، والشُّرْب، واللِّبَاس، والجِمَاع، وَدُخُول المَنْزل والمَسْجِد والخَلاء، والخُرُوج مِن ذَلك، وَعِنْد المَطَرِ والرَّعْد إلى غير ذلك.

وَقَدْ صُنِّفَت لَه الكُتُب المُسَمَّاة بـ«عَمَل اليَوْم وَاللَّيْلة».

ثُمَّ مُلَازَمة الذِّكْر مُطْلَقًا، وَأَفْضلُه: (لَا إِلَه إِلَّا الله).

وَقَد تَعرِض أَحْوَالٌ يَكُون بَقِيَّة الذِّكْر مثل: (سُبْحان الله، وَالحَمْد لله، والله أَكْبر، وَلَا حَوْل وَلَا قُوَّة إِلَّا بالله) أَفْضَلَ مِنه.

ثُمَّ يَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا تَكَلَّم بِه اللِّسانُ وَتَصَوَّرَه القَلْبُ مِمَّا يُقَرِّبُ إِلى الله مِنْ تَعَلُّم عِلْمٍ، وَتَعْلِيمه، وَأَمْرٍ بِمَعْروفٍ، وَنَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ: فَهُو مِن ذِكْر الله.

وَلِهَذا مَنِ اشْتَغَل بِطَلَبِ العِلْم النَّافِع بَعْد أَدَاء الفَرَائض، أَو جَلَسَ مَجْلِسًا يَتَفَقَّه أَو يُفَقِّه فِيه الفِقْه الَّذي سَمَّاه الله وَرَسُوله (فِقْهًا): فَهَذَا أَيْضًا مِن أَفْضَل ذِكْر الله.

وَعَلَى ذَلِك؛ إِذَا تَدبَّرتَ لَم تَجِدْ بَين الأَوَّلين فِي كَلِمَاتِهم فِي أَفْضَل الأَعْمالِ كَبِيرَ اخْتِلافٍ.

وَمَا اشْتَبَه أَمْرُه عَلَى العَبْد فَعلَيْه بِالاستخارة المَشْروعة؛ فَمَا نَدِم مَنِ اسْتَخَار الله تَعالى.

وَلْيُكْثِرْ مِن ذَلِك وَمِن الدُّعاء؛ فَإِنَّه مِفْتَاح كُلِّ خَيْرٍ، وَلَا يَعْجَلْ فيَقول: (دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي)، وَلْيَتَحَرَّ الأَوْقَات الفَاضِلة؛ كآخِرِ اللَّيْل، وَأَدْبَارِ الصَّلَوات، وَعِنْد الأَذَان، وَوَقْتِ نُزُول المَطَر، وَنَحوِ ذَلك.

وَأَمَّا أَرْجَح المَكَاسب: فالتَّوكُّل على الله، وَالثِّقَة بِكِفَايَتِه، وَحُسْن الظَّنِّ به.

وَذَلِك أَنَّه يَنْبغي للمُهْتَمِّ بِأَمْر الرِّزْق أَنْ يَلْجَأَ فِيه إِلَى الله وَيَدْعُوه؛ كَمَا قَال - سبحانه - فِيمَا يَأْثُر عَنه نَبِيُّه: «**كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ؛ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي؛ كُلُّكُم عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ؛ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ**».

وَفِيما رَوَاه التِّرْمِذِيُّ عَن أَنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا، حَتَّى شَسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ؛ فَإِنَّه إِنْ لَمْ يُيَسِّرْهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ**».

وَقَد قال الله - تَعالَى - فِي كتابه: ﴿وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النِّساء:٣٢].

وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾ [الجمعة:١٠]؛ وَهَذَا وَإِنْ كَان فِي الجُمْعة، فَمَعْناه قَائِمٌ فِي جَمِيع الصَّلَوات.

وَلِهَذا - والله أَعْلم -؛ أَمَر النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذي يَدْخُل المَسْجدَ أَنْ يَقول: «**اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ**»، وَإِذَا خَرجَ أَنْ يَقُول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ**».

وقد قال الخليل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ العنكبوت: [١٧]، وَهَذا أَمْرٌ، والأَمْر يَقْتَضِي الإيجاب.

فالاستعانةُ بالله واللَّجَأُ إِلَيْه - فِي أَمْر الرِّزْق وَغَيْره - أَصْلٌ عَظِيمٌ.

ثُمَّ يَنْبغي لَه أَنْ يَأْخذَ المالَ بِسَخاوَةِ نَفْسٍ لِيُبَارَك لـه فيـه، وَلَا يَأْخُذُه بِإِشْرَافٍ وَهَلَعٍ؛ بَل يَكُون المَالُ عِنْده بِمَنْزِلة الخَلَاء الَّذي يَحْتَاج إِلَيْه مِن غَيْرِ أَنْ يَكُون لـه في القَلْب مَكانةٌ، والسَّعْيُ فيه إِذَا

سَعَى كإصلاح الخلاء.

وَفِي الحَدِيث المَرْفُوع الَّذي رواه التِّرمذيُّ وَغَيْرُه: «**مَنْ أَصْبَحَ وَالدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمِّهِ؛ شَتَّتَ اللهُ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَفرَّقَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ أَصْبَحَ وَالآخِرَةُ أَكْبَرُ هَمِّهِ؛ جَمَعَ اللهُ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَجَعَلَ غِنَاه فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ**».

وَقَال بَعْض السَّلَف: «أَنْت مُحْتَاجٌ إلى الدُّنيا، وَأَنْت إِلَى نَصِيبكَ مِن الآخرة أَحْوَج؛ فَإِنْ بَدَأْت بِنَصِيبك من الآخرة مُرَّ عَلَى نَصِيبك مِن الدُّنْيا فَانْتَظِمْه انْتِظَامًا».

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذَّاريات].

فَأَمَّا تَعْيين مَكْسَبٍ عَلَى مَكْسَبٍ، مِن صِناعةٍ، أَو تِجَارةٍ، أَو بِنَايةٍ، أَو حِرَاثَةٍ، أَو غَيرِ ذَلك: فَهَذا يَخْتَلِف بِاخْتِلَاف النَّاس، وَلَا أَعْلَم فِي ذلك شَيْئًا عَامًّا.

لَكِن إِذَا عَنَّ لِلإنسان جِهَةٌ فَلْيَسْتَخِرِ الله - تَعالى - فِيها الاستخارةَ المُتَلَقَّاةَ عَن مُعَلِّمِ الخَير صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَإِنَّ فيها مِن البَرَكَة مَا لَا يُحَاط به.

ثُمَّ مَا تَيَسَّر لَه فَلا يَتكَلَّف غَيْرَه، إِلَّا أَنْ يَكُون مِنه كَرَاهةٌ شَرْعِيَّةٌ.

وَأَمَّا مَا تَعْتمد عَلَيْه مِن الكُتُب فِي العلوم: فَهَذا بَابٌ وَاسعٌ.

وهو - أَيْضًا - يَخْتَلِف بِاخْتِلاف نَشْءِ الإِنْسان في البلاد؛ فَقَد يَتيَسَّر له في بعض البلاد من العِلْم أَو من طَرِيقِه وَمَذْهبِه فيه ما لا يَتَيَسَّر له في بلدٍ آخر.

لَكِن جِمَاعُ الخَيْر: أَنْ يَسْتَعِين بالله - سُبحانه - فِي تَلَقِّي العِلْمِ المَوْرُوثِ عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَإِنَّه هو الَّذي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسَمَّى (عِلْمًا).

وَمَا سِواه:

- إِمَّا أَنْ يَكُون عِلْمًا؛ فَلا يَكُون نَافِعًا.

- وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُون عِلْمًا وَإِنْ سُمِّي بِه.

وَلَئِنْ كَان عِلْمًا نَافِعًا فَلا بُدَّ أَنْ يَكُون فِي مِيراث مُحَمَّدٍ ﷺ مَا يُغْنِي عَنه مِمَّا هُو مِثْلُه وَخَيْرٌ مِنه.

وَلْتَكُن هِمَّتُه: فَهْمَ مَقَاصد الرَّسُول في أَمْرِه وَنَهْيِه وَسَائِرِ كَلَامه.

فَإِذَا اطْمَأَنَّ قَلْبُه أَنَّ هَذا هُو مُرَاد الرَّسُول فَلا يَعْدِل عنه فِيما بَيْنَه وَبَين الله - تَعَالى - وَلَا مَع النَّاس إِذَا أَمْكَنه ذَلِك.

وَلْيَجْتَهِدْ أَنْ يَعْتَصِمَ فِي كُلِّ بَابٍ مِن أَبْواب العِلْم بِأَصْلٍ مَأْثُورٍ عن النَّبِيِّ ﷺ.

وَإِذَا اشْتَبَه عَلَيه مِمَّا قَد اخْتَلَف فيه النَّاس فَلْيَدْعُ بِمَا رَواه مسلمٌ في «صَحِيحه» عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رسول الله ﷺ كان يَقُول إِذَا قَام يُصَلِّي من اللَّيْل: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيه مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِك، إِنَّك تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**».

فَإِنَّ الله - تَعالى - قَد قَال فِيما رَوَاه عَنه رسوله: «**يَا عِبَادِي؛ كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ؛ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ**».

وَأَمَّا وَصْف الكُتُب وَالمُصَنِّفين: فَقَد سُمِعَ مِنَّا فِي أَثْنَاء المُذَاكرة مَا يَسَّره الله - سُبحانه.

وَمَا في الكُتُب المُصَنَّفة المُبَوَّبَة كِتَابٌ أَنْفَعُ من «صَحِيح مُحَمَّد بنِ إسماعيلَ البُخاريِّ»، لكن هُو وَحْدَه لَا يَقومُ بِأُصول العِلْم، وَلَا يَقُومُ بِتَمَام المَقْصُود لِلمُتَبَحِّر فِي أَبْواب العِلْم؛ إِذْ لَا بُدَّ مِن مَعْرِفة أَحَادِيثَ أُخَر.

وَكَلامُ أَهْل الفِقْهِ وَأَهْلِ العِلْم فِي الأُمور الَّتِي يَخْتَصُّ بِعِلْمِها بَعْضُ العلماء.

وَقَد أَوْعَبتِ الأُمَّة فِي كُلِّ فَنٍّ مِن فُنُون العِلْم إِيعَابًا، فَمَنْ نَوَّرَ الله قَلْبَه هَدَاه بِمَا يُبَلِّغُه من ذلك،

وَمَنْ أَعْمَاه لَم تَزِدْه كَثْرةُ الكُتُب إِلَّا حَيْرَةً وَضَلَالًا.

كما قال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِابن لَبِيدٍ الأنصاريِّ: «**أَوَلَيْسَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ عِنْدَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى؟! فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟!**».

فَنَسْأَل اللهَ العَظِيمَ أَنْ يَرْزُقَنا الهُدَى والسَّدادَ، وَيُلْهِمنا رُشْدَنا، وَيَقِيَنَا شَرَّ أَنْفُسِنا، وَأَنْ لَا يُزِيغ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذ هَدَانا، وَيَهَبَ لَنَا مِن لَدُنْه رَحْمةً، إِنَّه هُو الوَهَّاب.

وَالحَمْد لله رَبِّ العَالمين، وَصَلَوَاتُه عَلَى أَشْرَف المُرْسَلينَ.

الشَّرح

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَأَجَاب: الحَمْد لله رَبِّ العالمين).

قول المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: (الحَمْد لله رَبِّ العالمين) لم يذكر الشَّيخ تقي الدين في الإجابة الصلاة على النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا من الشَّيخ بناءً على ما يراه هو فإنَّه قد ذكر أنَّه لم يقف على حديثٍ يدلُّ على لزوم افتتاح الكلام بالصلاة على النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنَّما الذي ورد افتتاح الكلام بالحمدلة وبالشهادة، فتكون الصَّلاة على النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبعًا للشهادة، ولذلك تجد كثيرًا من رسائله يبتدئها بالحمدلة والشهادة، ويصلي على النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تبعًا لذكره عند الشهادة.

أنا قصدي من هذا أنَّ الشَّيخ حينما لم يرد الصلاة على النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الرسالة وفي صدرها كان ذلك عن علمٍ وليس ذلك عن سهو فإنَّه يرى أنَّ الصَّلاة في الابتداء ليس لها فضلٌ وارد وإن كانت جائزةً لا شكَّ وداخلةٌ في عموم الفضل، وإنَّما قد يكون الفضل في آخر الكلام حينما يكون هناك دعاءٌ تناسب أن يكون مع الدعاء الصَّلاة على النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنَّه ورد في عددٍ من الآثار أنَّ من أسباب إجابة الدعاء أن يقرن بالصلاة على

النبـيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وأمَّـا الحمدلـة فالحـديث فيهـا معـروفٌ للجميـع وهـو **قـول النبـيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُّ أَمْرٍ لا يُبْدَأُ فِيهِ بِحَمْدِ اللهِ فَهُوَ أَبْتَرُ**» **أي**: ناقص.

قـال رَحِمَهُ اللَّهُ: (أَمَّـا الوَصِـيَّة: فَمَـا أَعْلَـم وَصِـيَّةً أَنْفَـعَ مِـن وَصِـيَّة الله وَرَسُـوله لِمَـنْ عَقَلَهـا وَاتَّبَعَها).

قول المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: (أَمَّا الوَصِيَّة) **فمراده الوصيَّة** التي سأل عنها السائل وهـو: أن يوصيَّه بما فيه صلاح دينه ودنياه هذا المراد **فقوله**: (الوَصِيَّة) "أل" هنا للعهد للوصيَّة التي طلبتها في سؤالك المتقدِّم أولًا.

وقوله: (فَمَا أَعْلَم وَصِيَّةً أَنْفَعَ مِن وَصِيَّة الله وَرَسُوله لِمَنْ عَقَلَها وَاتَّبَعَها) هذه كلمةٌ جامعةٌ جليلةٌ ويجب أن تكون بين عيني طالب العلم، وذلك أنَّ الخير كلَّه في كلام الله وكـلام رسـوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومهما ابتغى المرء الخير والهـدى والعلـم في غيـر كـلام الله وكـلام رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنَّه حين ذاك يكون قد ابتعد عن الطريق السوي القويم، ولذلك جاء عـن عمـر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أنَّـه قيـل لـه: إنَّ أقوامًا يعظون بأشياء مـن غيـر الكتـاب والسنَّة **فقال**: «من لـم يتعظ بالكتاب والسنَّة فلا وعظه الله». فالعظة إنَّما تكون بمـا في الكتـاب والسنَّة **أعني**: لمن عرف معناها بأنَّ فقه دلائـل ألفاظهـا وفهـم المقصـود منهـا، ومـن لـم يـتعظ بـذلك وإنَّما يتعظ بغيره من الأمـور التـي يفعلهـا بعـض النـاس بقصـد تـوعيظ النـاس وتخـويفهم مـن بعض الأفعال ومن بعض الأقوال فلا شكَّ أنَّه يلزمه أن يراجع قلبـه وأن ينظـر في عملـه وينظـر في صدقه فإنَّ أعظم الكلام كلام الله جَلَّ وَعَلَا وخير الهدي هدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشرُّ الأمور محدثاتها كما جاء عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثمَّ إنَّ بعد ذلك المصنِّف بيَّن أنَّ الانتفاع بوصية الله وكلامه وبوصية رسوله وبكلامه لها **قيدان:**

❁ أن يعقل معناها بأن يعرف المعنى، ومعرفة المعاني لا يستوي الناس فيه، بل إنَّ بعضهم يكون أعلم من بعضٍ في كلام الله وكلام رسوله بحسب ما علم من لسان العرب وبحسب ما علم من عموم كلام الله وكلام رسوله، إذ كلام الله بعضه يفسِّر بعضًا.

❁ **والقيد الثاني**: **قوله**: (وَاتَّبَعَها) وهذا قيد مهم، إذ من أعظم الأمور التي تؤدِّي للعلم بكلام الله وكلام رسوله العمل فإنَّ أعظم طريقٍ للعلم العمل، فمن عمل بما تعلَّم زاده الله عَزَّوَجَلَّ علمًا، واكتسب علم ما لم يعلم، هذه قاعدة إنَّما توجد في دين الله عَزَّوَجَلَّ فاعمل بما تعلمت قدر استطاعتك، وكلَّما اتبعت أوامر الله وأوامر رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انتفعت بما تعلمت واكتسبت علم ما لم تعلم، وهذا مؤدَّى كلام الشَّيخ: (لِمَنْ عَقَلَها وَاتَّبَعَها).

ثمَّ شرع بعد ذلك في ذكر وصيةٍ في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ فيها جماع خيري الدنيا والآخرة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النِّساء: ١٣١]).

هذه الآية العظيمة فيها وصية الآدميين جميعًا ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى وغيرهم ممن أوتوا كتبا ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ **أي**: ووصيناكم مثل ما أوصيناهم ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فهذه الكلمة تقوى الله عَزَّوَجَلَّ كلمة عظيمة، ولكن للأسف أنَّ هذه الكلمة تقرع أسماعنا كثيرًا ولكننا لا نتفكر في معانيها ودلائلها، ولو نظر المرء في الدين كلِّه من التوحيد إلى منتهى أقل الأعمال المندوبة فيه فإنَّه سيجد أنَّها جميعًا تدور في فلك تقوى

الله عَزَّوَجَلَّ، وهذه الوصية بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ وصيةٌ يجب على المسلم أن يوصي غيره بها، ولذلك قرَّر علماؤنا رَحِمَهُمُٱللَّهُ تَعَالَى أنَّ الخطيب يجب عليه أن يأمر الناس بموعظةٍ، **قالوا**: «وأقلها أن يقول: اتقوا الله»، فالأمر بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ وصية عظيمة في الكتاب وهي وصيةٌ يحسن بالمسلم بل يلزمه أحيانًا أن يعظ أخاه المسلم بها، والنبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خطبة الحاجة التي كان يخطبها في الجمعة وفي غيرها كذلك في النكاح وغيره، كان يفتتحها بثلاث آياتٍ كلُّها فيها أمرٌ بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فالأمر بالتقوى لفظةٌ سهلة، لكن اكتساب معناها ومعرفة دلائلها هذا الذي في فلكه يدور أهل العلم جميعًا في كلامهم والنظر في أفعالهم إنَّما يدور على ما يتعلَّق بتقوى الله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَوَصَّى النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعَاذًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لَمَّا بَعَثَه إِلَى اليَمَن؛ فقال: «يَا مُعَاذُ؛ اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»**).

هذه الوصية هي مفسرة للآية التي في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وصَّى النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بها معاذًا وهي متكونة من ثلاث جمل:

- «**يَا مُعَاذُ؛ اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ**».
- **والثانية**: «**وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا**».
- **والثالثة**: «**وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**».

وهذه الجمل الثلاث هي من باب عطف الخاص على العام فإنَّ **قول النبيِّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ**» تشمل ما بعدها، وإنَّما ما بعدها هو محقِّقٌ لها **أي**: محقِّقٌ للتقوى ومكملٌ لها، وسيفصِّل المصنِّف في شرح هذه الكلمات الثلاث: في التقوى،

واتباع الحسنة، ومخالطة الناس بالخلق الحسن.

قال **رَحِمَهُ ٱللَّهُ**: (وَكَان مُعاذٌ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بِمَنْزِلَةٍ عَلِيَّةٍ؛ فَإِنَّه قال لـه: «**يَا مُعَاذُ؛ وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ**»، وَكَان يُرْدِفُه وَرَاءَه.

وَرُوِي فيـه: أَنَّـه «**أَعْلَـمُ الأُمَّـةِ بِـالحَلَالِ وَالحَـرَامِ**». وأَنَّـه «**يُحْشَـر أَمَـامَ العُلَمَـاءِ بِرَتْـوَةٍ**» أي بِخُطْوةٍ.

وَمِنْ فَضْله: أَنَّه بَعَثَه النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مُبَلِّغًا عَنْه دَاعِيًا، وَمُفَقِّهًا، وَمُفْتِيًا، وَحَاكِمًا إِلَى أَهْلِ اليَمن).

هـذه الكلمـات التـي أوردهـا الشَّـيخ أراد أن يبـيِّن أهميـة هـذه الوصـية التـي أوصـى النبـيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بهـا معـاذًا، وذلـك أنَّ معـاذ لـه خصـائص ليسـت لغيـره مـن النـاس سـواءً مـن الصَّـحابة أو مـن غيـرهم، كمـا قـال أبـو عبيـد القاسـم السـلَّام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَـالَى: «فضَّـل النبـيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ معاذًا على كثيرٍ من أصحابه بأمور» وعـدَّ بعـض هـذه الأشـياء، فمعـاذٌ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فضَّل كثيرًا من أصـحاب النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بـأمورٍ، وهـذا معنـى **قـول الشَّـيخ**: (وَكَـان مُعَـاذٌ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مـن النَّبـيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بِمَنْزِلَـةٍ عَلِيَّـةٍ) فـذكر بعـض فضـائله **فقـال**: (فَإِنَّـه) **أي**: النبـيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ (قال له: «**يَا مُعَاذُ؛ وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ**») وسبب إيراد هذه الجملة أنَّ العادة أنَّ من أحبَّ شخصًا فإنَّه يصدق له في النصيحة، والنبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أحبَّ معاذًا ولـذا فلمَّـا نصـحه صدق له في النصيحة، وتلفظ له بكلماتٍ جامعاتٍ فيها خير الدنيا والآخرة.

ثمَّ قال بعد ذلك: (وَكَان يُرْدِفُه وَرَاءَه) هـذا الوصـف لمعـاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يـدلُّ علـى فضـله، إذ الأصـل والقاعـدة في حـال أصـحاب النبـيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وفي حـال النـاس في زمـن النبـيِّ

صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعده أنَّ الأفضل هو الذي يكون أقرب جسدًا، كُلَّما كان أفضل صلاحًا وبرًا ومكانةً كلَّما كان أقرب، **وبناءً على ذلك** أن النبيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قال**: «**لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُوا الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى**» وهذا صريحٌ في أنَّ من كان أقرب إليه فإنَّه يستلزم أن يكون من أولي الأحلام والنهى والعلم والفضل، وبنى العلماء على هذا قاعدةً، فقد ذكر العلماء في قواعد الترجيح بين الأدلة أنَّ الدليلين النَّقليين إذا وردا عن النبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا يمكن الجمع بينهما فإنَّه يحكم بترجيح أحدهما إذا كان الراوي بأحد الحديثين أقرب للنبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذن: قصدي من هذا كلِّه أن نعرف أنَّ ما أشار إليه الشَّيخ من كون النبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ كان يردف معاذًا معه على دابته، فيردفه معه فيركبان معًا على دابةٍ واحدة ويمس جلد معاذٍ الجلد الشريف للنبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويكون جسمه مُلاصقًا لجسمه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنَّ هذا شرف ولا شكَّ ويدلُّ على فضل معاذٍ لا لمجرد ذلك وإنَّما لمكانته علمًا وفضلًا وعقلًا وهو النهى وما رزقه الله عَزَّوَجَلَّ من معرفةٍ بالحلال والحرام.

ثمَّ قال: (وَرُوِي فيه) **قوله**: (وَرُوِي) جرت عادة كثير من المتأخرين كما نبه على ذلك النووي في كتاب «**التقريب**» أنَّه إذا بُني هذا اللفظ على المجهول فإنَّه يكون إشارةً إلى أنَّ الحديث ضعيف، وهذا الاستخدام يستخدمه المتأخرون لكنه ليس مُطردًا فإنَّهم يطلقونه أحيانًا ولا يقصدون به هذا الاستخدام عمومًا فلا يلتزم هذا الاستخدام الجميع، قلت أقول هذا لِمَ؟ لأنَّ هذا الحديث الأوَّل الذي أورده المصنِّف وهو ما جاء أنَّ معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أعلم أمة محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحلال والحرام هو حديثٌ صحيح، فقد رواه التِّرمذيُّ وغيره من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **وقال التِّرمذيُّ**: «إنَّه حديثٌ حسن صحيح»، ولكن ربَّما كان إيماء

الشَّيخ ببناء الفعل على المجهول لما بعده من الأحاديث التي بعدها، فالحديث الأوَّل فيه أنَّ النبيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر أنَّ مُعاذًا أعلم أمة محمد صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحلال والحرام وهذا يدلُّنا على أنَّ مُعاذًا كان عالمًا، ومن كان عالمًا فإنَّ نصيحته تختلف عن نصيحة غيره من النَّاس، إذ العالِم يحتاج إلى أمرين لتذكيرٍ ويحتاج لمعرفة ما لم يعلم، إذ ما من أحدٍ يكون عالمًا العلم كلَّه، **كما قال الخَضِر لموسى** عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ: «ما نقص علمي وعلمك من علم الجبار جَلَّ وَعَلَا إلَّا كما أخذ هذا العصفور من البحر»، فالعالِم يحتاج إلى وصايا تكون أشمل وأدق وأكمل، فالعالم يحتاج إلى أن تكون الوصايا الخارجة منه أشمل وأتم وأكمل التي تصدر له تكون كذلك.

ثمَّ قال: (**وَرُوِي أَنَّه «يُحْشَر أَمَامَ العُلَمَاءِ بِرَتْوَةٍ»**) **قوله:** «**أَمَامَ العُلَمَاءِ**» **أي**: يكون متقدِّمًا أمام العلماء، وهذا الحديث رُوي بألفاظٍ متعدِّدة منها ما جاء عند أبي نُعيمٍ في «**الحلية**» من حديث أنَّ مُعاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «**أَمَامَ العُلَمَاءِ**» من غير زيادة «**يُحْشَر**» فيكون «**يُحْشَر**» من باب تفسير أهل العلم ما معنى أن يكون أمام العلماء؟ **أي**: يوم القيامة في المحشر، وقوله: «**بِرَتْوَةٍ**» فسَّرها المصنِّف بأنَّها خُطوة، وكذا جاء عن أبي ضُمرة راوي الحديث **فقال**: «إنَّها خطوة أو أكثر» فدلَّ ذلك على أنَّ معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يأتي يوم القيامة في زمرة العلماء، وأنَّه يكون مُتقدِّمًا عليهم، إذ العلماء وإن كان هذا الوصف يصدق على كثيرٍ من الناس إلَّا أنَّهم ليسوا درجةً واحدة، وهذا مسلَّم لا في العلم ولا في الإمامة في الدين ولا في الصدق مع الله عَزَّ وَجَلَّ فيما يبذلونه، ومعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو المتقدِّم على هؤلاء كلِّهم، ولذا فإنَّ الاقتداء بهدي معاذ وخاصةً لطلبة العلم مهم وسأشير إليه عند انتهاء الكلام في فضائله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال: (وَمِنْ فَضْله) أي: معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (أَنَّه بَعَثَه النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُبَلِّغًا عَنْه دَاعِيًا، وَمُفَقِّهًا، وَمُفْتِيًا، وَحَاكِمًا إِلَى أَهْلِ اليَمن) فهذه تدلُّ على النيابة عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الأمور.

المقصود: من هذا كلِّه أنَّ مُعاذًا اختصَّ بثلاثة خصائص وردت في هذه الأحاديث: أنَّه كان عالم، وأنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يحبه، وأنَّه كان قريبًا من النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدنًا وقريبٌ منه أيضًا قلبًا لأجل المحبة ولكون النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنابه عنه، فالنبيُّ لم ينب عنه في القضاء والفتوى إلَّا أكابرُ الصحابة كعليٍ ومعاذٍ – رضي الله عن الجميع – وهذا يدلُّنا كله على أنَّ وصية النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ وصيةٌ تستحق الوقوف معها، وتستحق التأمل في دلائل ألفاظها، والنظر فيها، ولذلك استحبَّ العلماء – كما قلت لكم قبل – أن يقتدى طلبة العلم بهدي اثنين من الصَّحابة: هدي عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بن أم عبدٍ، وبهدي معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإنَّ هديهما عظيم ولعلَّه يكون لذلك حديث بعد ذلك منفصل.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَكَان يُشبِّهه بِإبْرَاهيمَ الخَليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِبْرَاهيمُ إِمَامُ النَّاس.

وَكَان ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «إِنَّ مُعَاذًا كَان أُمَّةً قَانِتًا للهِ حَنِيفًا، وَلَمْ يَكُ من المُشْركين»؛ تَشْبيهًا له بإبراهيمَ).

قول المصنِّف هنا: (وَكَان يُشَبِّهه) يحتمل أن تكون "وكان يُشبَّه" أي: وكان معاذ يشبَّه بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويمكن أن تكون "وَكَان يُشَبِّهه" فيكون المشبِّه هو النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسيأتي ما يتعلَّق بذلك بعد قليل.

قال: (وَكَان يُشَبِّهه بِإبْرَاهيمَ الخَليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِبْرَاهيمُ إِمَامُ النَّاس) هناك قاعدة في اللغة

أنَّ التشبيه لا يقتضي التشبيه من كلِّ وجه، وإنَّما يكون من وجه دون وجه، عندما يشبَّه امرؤٌ بنبيٍ من أنبياء الله عَزَّوَجَلَّ كإبراهيم أو أيوب في الصبر أو موسى فيما يتعلَّق بالإيذاء عَلَيْهِ السَّلَامُ أو عيسى أو محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنَّه لا يقتضي أنَّ المشبَّه به يكون مثله مطلقًا، فيكون مثله نبيًا ويكون مثله فاضلًا ويكون مثله في أعلى درجات الجنة ونحو ذلك، وإنَّما التشبيه يقتضي التشبيه في بعض الأمور التي تكون ظاهرةً لابدَّ أن يكون ذلك الأمر أمرًا ظاهرًا، وبيَّن الشَّيخ تقي الدين وجه شبه معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإبراهيم وهو أنَّ إبراهيم كان إمام الناس فهو إمامٌ للناس في زمانه وبعده، ولذا كانت النبوة في ذرية إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ [آل عمران:٦٧] وإنَّما عيسى وموسى ومحمد كلُّهم كانوا على الحنيفية السمحة ملَّة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثمَّ بعث الله عَزَّوَجَلَّ لهم شرائع زائدة على ما جاءت في ملَّة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإبراهيم كان إمامًا يقتدى به، وكذلك معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولذا فإنَّ الأحاديث التي رواها معاذٌ والأحكام التي أفتى بها معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في درجةٍ عالية عند فقهاء المسلمين ومرَّ معنا قبل أنَّ من قواعد الترجيح عند بعض أهل العلم الترجيح بما رواه الفقيه، وهذا وإن قال به الحنفية وردَّ عليهم غيرهم إلَّا أنَّ الفقهاء يقولون بالترجيح بذلك لكن لا على سبيل الإطلاق كما قال الحنفية، وإنَّما بقيود أوردوها في محلها مذكورة في كتب الأصول.

ثمَّ قال الشَّيخ: (وَكَان ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «**إِنَّ مُعَاذًا كَان أُمَّةً قَانِتًا للهِ حَنِيفًا، وَلَمْ يَكُ من المُشْرِكين**»؛ تَشْبِيهًا له بِإبراهِيمَ.) لأنَّ الآية: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ**﴾ [النحل:١٢٠] وقد جاء أنَّ ابن مسعود لمَّا قال هذا الكلام قال له صاحبه الذي كان بجانبه: «لعلك أخطأت إنَّ إبراهيم كان أمة»، **فقال ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ مُعَاذًا كَانَ أُمَّةً» يجعلها

طالب العلم نصب عينيه دائمًا فإنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوصى بها من هو مِن أحب أصحابه إليه ومن هو من كان من أصحابه عالمًا يقتدى به.

قال: (وَهِي كَذَلِك لِمَنْ عَقلَها).

قوله: (وَهِي كَذَلِك لِمَنْ عَقلَها) **أي**: تعلمها كما ذكرت لكم، فيجب على طالب العلم أن يعتني بها، ولا يكون آخر عهده بها أن يقرأها مرَّة ثمَّ يكتفي.

قال: (مَعَ أَنَّهَا تَفْسِير الوَصِيَّةِ القُرْآنِيَّة).

قوله: (مَعَ أَنَّهَا تَفْسِير الوَصِيَّةِ القُرْآنِيَّةِ) يدلُّنا على مسألة وهو: أنَّ القرآن لم يدع شاذة ولا فاذة ولا صغيرة ولا كبيرة إلَّا بيَّنها ولو أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ فتح على العبد الخير لاكتشف من هذه الوصية في القرآن، الوصية بتقوى الله لدلَّ على هذه المعاني الثلاث التي وردت في وصية النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ، ولكن لمَّا كان الناس عقولهم وعلومهم قاصرة كانوا محتاجين لما يبيِّن القرآن وهو سنة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا وَإِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ**»، **يعني**: مبيِّنة له وهي السنَّة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (أَمَّا بَيَان جَمْعِها: فَلِأَنَّ العَبْد عَلَيْه حَقَّان:

- حَقٌّ لله عَزَّ وَجَلَّ.
- وَحَقٌّ لِعِبَاده).

يقول الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: (أَمَّا بَيَان جَمْعِها) **أي**: وأمَّا جمع هذه الكلمات الثلاث: اتق الله حيثما كنت، **والثانية**: وأتبع السيِّئة الحسنة تمحها، **والثالثة**: وخالق الناس بخلق حسن، لماذا جمع هذه الكلمات الثلاث؟ **قال**: لأنَّ الحقوق التي تجب على الآدمي **حقان**:

۞ **إمَّا حقٌ لله عَزَّوَجَلَّ**؛ وأعظمه إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالعبادة وهو: التوحيد، ثمَّ بعد ذلك الانكفاف عن النواهي والامتثال للأوامر، وقد تنازع العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَى أيُّهما أولى عند التعارض، فعل الأمر أم الانكفاف عن النهي؟ هذا واحد، وإن **قال بعضهم**: «إنَّه لا تعارض لأن كلّ أمرٍ هو انكفافٌ عن نهي، وكلُّ نهيٍ إنَّما هو امتثالٌ لأمرٍ بالانكفاف»، ولذلك **يقول**: «الأمر ضده النهي»، هذا ما يتعلّق بحقوق الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ **وأمَّا حقوق الآدميين** فهي كثيرة إمَّا واجبة بشرع الله عَزَّوَجَلَّ أو بعقد الآدمي مع غيره، بأن يعقد عقدًا إمَّا عقد زواجٍ أو عقد بيعٍ ونحو ذلك من الأمور.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ثُمَّ الحَقُّ الَّذي عَلَيْه لَا بُدَّ أَنْ يُخِلَّ بِبَعْضِه أَحْيانًا:

- إِمَّا بِتَرْك مَأْمُورٍ به.
- أَوْ فِعْل مَنْهِيٍّ عَنْه).

يقول الشَّيخ: (ثُمَّ الحَقُّ الَّذي عَلَيْه) سواءً كان حق لله عَزَّوَجَلَّ أو الحق للآدمي لابدَّ أن يخلَّ ببعضه أحيانًا لابدَّ أن يقصِّر فيه، وما من شخصٍ إلَّا وعنده تقصير، وقد نبَّه العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَى أنَّ من ظنَّ في نفسه أنَّه لا يخطئ وأنَّه لا يذنب فإنَّ هذا أوَّل هلاكه، وأوَّل علامةٍ من علامات عدم إصابته، ولذلك فإنَّ من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ على العبد أن يكون له ذنبٌ ويعرف ذنبه، إنَّ من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ على العبد أن يكون لك ذنب وأن تعرف ذنبك، وقد جاء عن إياس بن معاوية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى **قال**: «إنَّ العاقل الذي يعرف عيب نفسه، فقيل له: وما عيبك يا إياس؟ قال: كثرة الكلام»، **ولذلك فإنَّ المرء إذا عرف ذنبه فإنَّه يستفيد أمرين**:

۞ تصحيح ذلك الذنب بالتوبة والإنابة والاستغفار.

❁ **والأمر الثاني**: تحقير نفسه وعدم تعظيمها وتذلله بين الجبَّار جَلَّوَعَلَا فإنَّ لكلِّ امرئٍ ذنبًا، ولكن المنافق أحيانـًا إذا عرف ذنبه تصاغره، والمؤمن إذا عرف ذنبه تعاظم، وقد جاء في الأثر أنَّ المؤمن يرى ذنبه كالجبل يكاد يسقط على رأسه، والمنافق يرى ذنبه كالذباب يأتي على وجهه فيقول به هكذا فيذهب، ولذلك فإنَّ المسلم يُعنى دائمًا بقلبه ويُعنى بأعماله، والذنب ليس معناه ارتكاب محرَّم صريح بل قد يكون تقصير في أمرٍ من الأمور كما ذكر الشَّيخ: (إِمَّا بِتَرْك مَأْمُورٍ به، أَوْ فِعْل مَنْهِيٍّ عَنْه.) فالذنب يشمل الأمرين.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فقال النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ»؛ وَهَذه كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ. وفي قوله: «حَيْثُمَا كُنْتَ» تَحْقِيقٌ لِحَاجته إِلَى التَّقْوى فِي السِّرِّ وَالعَلَانِية).

قال: (فقال النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ») **قال الشَّيخ**: (وَهَذه كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ) «اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ» فـ"حيثما" كما تعلمون من صيغ العموم، بل قرنت بـ"ما" فتزيدها عمومًا فإنَّها تشمل في كلِّ مكان تكون فيه فإنَّه يلزمك تقوى الله عَزَّوَجَلَّ، ويلزمك أيضـًا في كلِّ حالٍ من الأحوال التي تكون عليها في يقظتك سواءً كنت مضطجعًا وسواءً كنت جالسًا أو قائمًا وفي الأحوال التي تكون فيها في مسجدٍ وفي الأحوال التي تكون خارج مسجد، ولذا كلَّما كان المرء مراقبًا الله عَزَّوَجَلَّ في أحواله كلِّها كلَّما كان شأنه أعظم، وأنا أذكر لكم بعضًا من أخبار الكمَّل من الناس الذين راقبوا الله عَزَّوَجَلَّ في أحوالهم كلِّها واستحوا من الله عَزَّوَجَلَّ كمال الحياء، وعندما أعبِّر بالكمَّل لا أعني أنَّ ما فعلوه يستطيعه كلُّ الناس فإنَّ في ذلك مشقة، ولكن كما ذكرت لك الناس في التقوى درجات كما أنَّهم في العلم والإيمان درجات، فمن أخبارهم في ذلك ما جاء عن عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فإنَّ عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لم يكن يظهر عورته

في أي موضعٍ إلَّا لحاجة كقضائها أي: كقضاء الحاجة وغيرها وذلك من حيائه من الله عَزَّوَجَلَّ، وجاء عنه أيضًا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّه كان إذا دخل الخلاء غطَّى رأسه حياءً، وهذه من صور مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ في المواضع التي عادةً ما يغفل الناس عنها، وكذلك أيضًا جاء عن الصَّحابة – رضوان الله عليهم – من أفعالهم خاصةً في أمورهم حينما يكونون في هجدة ليلهم وفي حال سرهم ما فيه خبرٌ عظيم وعجيب يرجع إليه في كتب السِيَر.

قال الشَّيخ: (وفي قوله: «حَيْثُمَا كُنْتَ» تَحْقِيقٌ لِحَاجته إِلَى التَّقوى فِي السِّرِّ وَالعَلَانِية) هذه فيها نكتة وهو أنَّ التقوى العبد هو الذي يحتاجها، أنت الذي تحتاج التقوى فإنَّ تقواك الله عَزَّوَجَلَّ تنفعك أنت ولا تنفع غيرك فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ غنيٌ عن العباد، غنيٌ عن أعمالهم لو أنَّ أهل الأرض جميعًا عبدوا الله عَزَّوَجَلَّ أو عصوه فإنَّ عبادتهم وعصيانهم لا ينقص ولا يزيد في ملك الله عَزَّوَجَلَّ شيئًا، فالله هو الغني الحميد والله عَزَّوَجَلَّ هو المستغني عن العباد، فتقواك وعملك بالصالحات وانكفافك عن المحرَّمات إنَّما هو لمصلحة نفسك، ولذلك التفت الشَّيخ لذلك **فقال**: (تَحْقِيقٌ لِحَاجته) أي: حاجة العبد. (إِلَى التَّقْوى فِي السِّرِّ وَالعَلَانِية) العلانية؛ التقوى فيها أسهل فإنَّ المرء يستحي من الناس، وأمَّا السر فالتقوى فيها أصعب لأنَّ لا رقيب عليه إلَّا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فحينئذٍ يكون الحياء الكامل من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولذلك عثمان لمَّا كان يستحي بعرف الناس في زمانهم وإلى عهد قريب أن يخرج أمام الناس كاشف الرأس حاسره فإنَّه استحى من الله عَزَّوَجَلَّ أن يكون حاسر الرأس في ذلك الموضع فكأنه أتى من هذا الباب.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (ثُمَّ قال: «وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا»؛ فَإِنَّ الطَّبِيبَ مَتَى تَنَاوَلَ المَرِيضُ

شَيْئًا مُضِرًّا أَمَرَه بِمَا يُصْلِحه.

وَالذَّنْب لِلعَبْد كَأَنَّه أَمْرٌ حَتْمٌ).

قال الشَّيخ: (ثُمَّ قال: «وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا») ضرب لذلك مثالًا لطيفًا قال: (فَإِنَّ الطَّبِيبَ مَتَى تَنَاوَلَ المَرِيضُ شَيْئًا مُضِرًّا) **أي**: هو الذي يكون مضرًّا به (أَمَرَه بِمَا يُصْلِحه) **أي**: بما يصلح ذلك الضرر، **فعلى سبيل المثال**: إذا أكل طعامًا ضارًا فإنَّه يُعطيه دواءً يكون سببًا في إسهاله أو يكون سببًا في قيئه ذلك الطعام الذي ضرَّه، **ومثله أيضًا**: ما يكون من السموم التي تدخل الجسد الآدمي فيُعمل له غسيل المعدة وغيرها من هذه الإجراءات التي تتخذ عند الطبيب.

إذن: فأنسب شيءٍ للمرض أن يُعالج بما يكون دافعًا له.

قال: (وَالذَّنْب لِلعَبْد كَأَنَّه أَمْرٌ حَتْمٌ) يعني: **يقول الشَّيخ**: (كأن النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما قال: «وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ» كأنه ما من امرئٍ من الناس إلَّا وسيفعل سيئةً ويتلبس بها) كلُّ الناس لابدَّ أن يتلبس بسيِّئة، وهذا الذي ذكرت لكم قبل قليل أنَّ من ظن أنَّه لم ولن يتلبس بسيِّئة فإنَّه جاهلٌ بنفسه ظالمٌ لها، بل إنَّ أنبياء الله – صلوات الله وسلامه عليهم – أكثر أهل العلم على جواز صدور صغائر الذنوب منهم، فالصغائر لا يكاد يسلم منها أحد، إلَّا من رحم الله عَزَّوَجَلَّ في أحيان معيَّنة فكأن هذا الحديث في صياغته حينما **قال**: «أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ» **أي**: السيِّئة المتحققة كأنَّه **قال**: (المتحققة) فما من امرئٍ إلَّا وعنده سيِّئة إمَّا بفعل محرَّمٍ أو بترك مأمور به، ولا شكَّ أنَّ السيِّئات ليست درجة واحدة بل بعضها أعلى من بعض، بعضها كبائر وبعضها صغائر، والكبائر درجات، والصغائر كذلك درجات، وهذا معنى **قول الشَّيخ**: (بِمَا

يُصْلِحه. وَالذَّنْب لِلعَبْد كَأَنَّه أَمْرٌ حَتْمٌ).

أخذه من لفظ الحديث.

قال **رَحِمَهُ ٱللَّهُ**: (فَالكَيِّسُ هُو الَّذي لَا يَزَال يَأْتِي مِن الحَسَنات بِمَا يَمْحو السَّيِّئَات.

وَإِنَّما قَدَّمَ فِي لَفْظ الحديث «**السَّيِّئَةَ**» -وَإِن كانت مَفْعولةً- لِأَنَّ المَقْصود هنا: (مَحْوُها)، لَا (فِعْل الحَسَنة)؛ فَصَار كَقَوْله فِي بول الأعرابيِّ: «**صُبُّوا عَلَيْهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ**»).

قول المصنِّف: (فَالكَيِّسُ هُو الَّذي لَا يَزَال يَأْتِي مِن الحَسَنات بِمَا يَمْحو السَّيِّئَات) الكيِّس هو: العاقل، والعقل أوَّل درجاته الفهم لكلام الله عَزَّوَجَلَّ فإنَّ من صور العقل الفهم، ولذلك العقل **نوعان**: غريزي ومكتسب، والمكتسب يتحقَّق به العلم، وليس العقل كلُّه غريزي بل بعضه مكتسب، وهذا هو المتقرِّر عند المحققين، وبناءً على ذلك فإنَّ العاقل هو الذي فهم هذه الوصية من النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فما زال يأتي من الحسنات بما يمحو سيِّئاته سواءً كانت السيِّئات من جنس حسنة أو من غيرها، وأضرب لذلك **أمثلةً**:

۞ **فمن كان عنده تقصيرٌ في الصلاة**، إمَّا بتفويت إمَّا لكليتها أو لبعض واجباتها أو إنقاصٌ في صفة الاطمئنان فيها، وبعض مندوباتها كالخشوع وغيره فإنَّ النَّوافل وهي الحسنات تُرقِّع ما تخرَّق من الصلاة وبذلك جاء الحديث.

۞ **ومثله أيضًا نقول فيما يتعلَّق بالصوم** فإنَّ الصَّوم يعرض عليه في رمضان ما ينقصه، إمَّا بغيبةٍ أو نميمةٍ أو نحو ذلك من الأمور، فإذا أتبع المسلم صوم رمضان بصيام النوافل وأوَّلها الست من شوال كان في ذلك تكميل لأجره، وقد جاء في الحديث في «**مسلم**»: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ وَأَتْبَعَهُ بِستٍ مِنْ شَوَّالٍ فَكَأَنَّمَا صَامَ الدَّهْرَ كُلَّهُ**» فجعل الشرط اجتماع **الأمرين**: فعل

الواجب ثمَّ الإتيان بالمندوب الذي يتمم ويكمل ما تخرَّق من الناقص فيه.

۞ **ومثله أيضًا يقال في الحجِّ** وفي غيرها من العبادات.

ثمَّ أتى المصنِّف بلفظةٍ بلاغية جميلة أو دِلالة بلاغية من الحديث **فقال**: (وَإِنَّما قَدَّمَ في لَفْظ الحديث «السَّيِّئَةَ» - وَإِن كانت مَفْعولةً -) الأصل أنَّ الحديث: "وَأَتْبِعِ الحَسَنَةَ السَّيِّئَةَ" لأنَّ الحسنة مفعول به أوَّل والسيِّئة مفعول به ثاني فهي المتبعة وليست هي التابعة التي تكون متقدِّمةً، **قال**: لكنه قدَّم المفعول عليها **قال**: (لأنَّها هي المقصودة) إذ تقديم المفعول الثاني على المفعول الأوَّل يجعله هو المقصود، كما أنَّ تقديم المفعول على الفاعل يجعله هو المقصود، فإذا أردت أن تقول لشخصٍ أو تتحدث عن أنَّ زيدًا ضرب عمرا وأردت التنبيه لكون عمرا هو المضروب، فتقول: ضرب عمرو زيد فكأنَّك تريد أن تبيِّن أنَّ المقصود هو التنبيه للفعل الواقع على عمرو لا الفعل الواقع من زيد وهذه دلالة بلاغية.

ثمَّ قال: (فَصَار كَقَوْله) **أي**: كقول النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ (في بول الأعرابيِّ: «**صُبُّوا عَلَيْهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ**») الأصل في السياق أن يقول: «**صُبُّوا ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ عَلَى بَوْلِهِ**» ولكن لمَّا كان المقصود بيان صفة تطهير البول قدَّم الجار والمجرور الذي محله التأخير على المفعول **فقال**: «**صُبُّوا عَلَيْهِ**» لأنّ هو المقصود التنبيه لصفة تطهير هذا البول، وهذا لا شكَّ أنَّ هذا الكلام إنَّما صدر منه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لكونه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أوتي جوامع الكلم فإنَّما أوتيها من باب الوحي، ولذلك جزم جماعة من أهل العلم ومنهم القاضي عياض وغيره أنَّ ما كان من باب جوامع الكلم ومنها الحديث الذي معنا في وصيته لمعاذ أنَّه وحيٌ من الله عَزَّ وَجَلَّ ولا شكَّ قطعًا؛ لأنَّ **النبيَّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ **قال**: «**أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ**» فهو وحيٌ منه لفظًا وهو

وحيٌ منه معنًى كذلك.

طبعـًا **قوله**: (لأن المقصود السيئة) **أي**: يعني مراده أنَّ المقصود من الحديث التنبيه لما يحصل به تكفير السيِّئات هذا هو المقصود، فالمقصود من الحديث يكون حينئذٍ ما يحصل به تكفير السيِّئات.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَيَنْبَغي أَنْ تَكُون الحَسَنات مِن جِنْس السَّيِّئات؛ فَإِنَّه أَبْلَغُ في المَحْوِ).

هذه مسألة سبق الإشارة إليها أنَّ الحسنة إذا كانت من جنس السيِّئة التي فعلها الآدمي فإنَّها أبلغ في المحو، هذا مسلَّمٌ في العقل ويدلُّ عليه الأحاديث فإنَّ **قوله**: «**وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا**» فإنَّه يُحتمل أن تكون المعهودة **أي**: من جنسٍ واحد فتكونان من جنس واحد، وهذا معنى **قوله**: (وَيَنْبَغي أَنْ تَكُون الحَسَنات مِن جِنْس السَّيِّئات) ولذلك فإنَّ من أخطأ على غيره بذمٍ له وغيبة فعلى قول من يرى عدم لزوم تحليل من اغتابه فإنَّهم **يقولون**: «إنَّ تكفير تلك السيِّئة يكون بالدعاء له وبالثناء عليه» فتكون تلك الحسنة من الجنس، فأمَّا الدعاء فإنَّه ثناءٌ عليه عند الجبَّار جَلَّ وَعَلَا وطلب أن يثني عليه الجبَّار جَلَّ وَعَلَا، وأمَّا الثناء عند الآدميين فإنَّها من باب ذكر محاسن أخيه المسلم وهي حسنة فتكون مكفِّرة للسيِّئة التي من جنسها وهكذا إن شئت أن تأتي في أغلب الذنوب والسيِّئات فإنَّك ستأتي بمثلها وبجنسها ما يناسبها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَيَنْبَغي أَنْ تَكُون الحَسَنات مِن جِنْس السَّيِّئات؛ فَإِنَّه أَبْلَغُ في المَحْوِ.

والذُّنُوب يَزُول مُوجِبُها بِأَشْياء).

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى: (والذُّنُوب يَزُول مُوجِبُها) **عبَّر المصنِّف بقوله**: (يَزُول

مُوجِبُها) **ولم يقل**: «تزول الذنوب» لأنَّ موجب الذنب هو العقوبة، وأمَّا الذنب فقد يبقى ولكن يزول موجبها ومع بقاء الذنب، ولذلك فإنَّ من أسماء الجبَّار جَلَّ وَعَلَا العفو والغفور وفرَّقوا بين العفو وبين الغفران، **أنَّ العفو هو**: الإزالة بالكلية، **بينما الغفران هو**: الإزالة للأثر والموجب، هكذا ذكر بعض العلماء الذين شرحوا أسماء الجبَّار جَلَّ وَعَلَا.

إذن: فإنَّ تكفير الذنوب تارةً يكون بمحوها كأن لم تكن موجودة، وتارةً يكون بسترها وتغطيتها وعدم الإثابة عليها ورفع شؤمها فإنَّ للذنب شؤمًا في الدنيا يراه المرء في دابته وفي أهله وفي ماله، ولها شؤمٌ في الآخرة بالعذاب والنكال في البرزخ وفي الآخرة، الله عَزَّوَجَلَّ تكفيره للذنوب على نوعين كما مرَّ معنا، وهذا يُفرِّق الله عَزَّوَجَلَّ فيه بين شخصٍ وآخر ولا شكَّ أنَّ محو الذنب بكليته أعظم امتنانًا من الله عَزَّوَجَلَّ وهذا يكون لبعض الناس دون بعضهم لأنَّ من مُحِيَ ذنبه لا يراه يوم القيامة، فلا يراه بالكلية فلا يقع في نفسه من الكدر ويقع في نفسه من الخوف ما يقع في نفس غيره ممَّن يراه وإن لم يعاقب عليه فيغفر له بذلك مكانه.

ذكر المصنِّف هنا أسباب إزالة موجبات الذنوب في الدنيا والآخرة، وعدَّد بعضها ومكفِّرات الذنوب متعدِّدة جداً أفرد فيها جماعة من أهل العلم كالسيوطي وقبله ابن حجر وقبل الاثنين جمع المنذري فيها رسالة وكثيرٌ من أهل العلم أيضًا ألفوا حتَّى بعض المسلمين من المتقدِّمين ألفوا فيها أجزاءً خاصةً، والمصنِّف أراد من ذكر هذه الأسباب أن ينبه لخطأ من بعض طلبة العلم حينما ظنَّ أنَّ بعض هذه الأسباب متداخلة لبعض هذه الأسباب لتبيين أنَّ كلَّ سببٍ منفصل عن السبب الآخر، فقال: أولها أو أَحدها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والذُّنُوب يَزُول مُوجِبُها بِأَشْياءَ: أَحدها: التَّوبة).

قال: (أَحدها: التَّوبة) وحكم التوبة بابها طويل جداً وواسع ومن أحسن من تكلَّم عن أحكام التوبة **اثنان**: ابن القيِّم بن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى وابن مفلح بعد ذلك في كتابه «**الآداب الشرعية**»، فقد تكلموا كلامًا نفيسًا عمَّا يتعلَّق بالتوبة وشروطها ولزوم تكرارها هل يلزم تكرارها؟ وإن لم يعلم المرء ذنبًا ليتوب منه أم لا؟ في كلامٍ نفيسٍ ومفصَّلٍ يحتاج الرجوع إليه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والثَّاني: الاستغفار مِن غَيْر تَوبةٍ؛ فَإِنَّ الله تَعَالى قَد يَغْفِرُ له إِجَابةً لِدُعائه وَإِنْ لَم يَتُب. فَإِذَا اجْتَمعت التَّوْبة والاستغفار فهو الكمال).

هذه النكتة أراد أن يبرزها الشَّيخ تقي الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى ولذلك ذكرها، أراد أن يبيِّن لنا الشَّيخ أن هناك سببين يتحقق بهما تكفير الذنوب:

- **أحدها**: التوبة.
- **والثاني**: الاستغفار.

والاستغفار لا يستلزم التوبة، فقد توجد توبة بلا استغفار، وقد يوجد استغفار بلا توبة، إذ التوبة متعلِّقةٌ بالقلب والاستغفار مُتعلِّقٌ باللسان، وله تعلقٌ بالقلب فلا استغفار إلَّا بطلب المغفرة بأن يقول: أستغفر الله، هذا طلب المغفرة **أي**: أسألك يا ربي أن تغفر ذنبي، ولذا فإنَّ النبيَّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يجمع بينهما فيقول: «**إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ**» فجمع بين الاستغفار والتوبة والواو تقتضي المغايرة في هذا الموضع وتقتضي أيضًا الجمع في السياق فهي بالجمع والمغايرة معًا، فبيَّن النبيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ التوبة والاستغفار كلاهما يأتي به النبيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ.

إذن: التوبة هي: الإقلاع عن الذنب وتركه مع العزم على عدم العود له والندم على ما فعله المرء قبل، هذه الأمور الثلاثة والأركان الثلاثة والشروط هي التي تتحقق بها التوبة، فمن أتى بهذه الأمور الثلاثة فهو تائب، وأمَّا الاستغفار فهو طلب المغفرة من الله عَزَّوَجَلَّ قد يكون المرء مصرًا على ذنبه ويستغفر الله عَزَّوَجَلَّ، الله كريم فمع إصرار العبد على الذنب وطلبه المغفرة يغفر ذنبه الماضي، بل ربَّما غفر ذنبه المستقبل، «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيُذْنِبُ فَيَسْتَغْفِرُ فَيُغْفَرُ لَهُ ثُمَّ يُذْنِبُ فَيَسْتَغْفِرُ فَيُغْفَرُ لَهُ فَمَا زَالَ يُذْنِبُ وَيَسْتَغْفِرُ حتَّى يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لَهُ: افْعَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ**» كما جاء في الحديث هذا من رحمة الله لبعض الناس لا لمطلق الناس.

إذن: يجب أن نميِّز التوبة وبين الاستغفار، الاستغفار طلب المغفرة **أي**: مغفرة الذنب الذي فعلته ولا تلازم بينه وبين التوبة.

ولذلك قال الشَّيخ: (فَإِنَّ الله تَعَالى قَد يَغْفِرُ له إِجَابَةً لِدُعائه) الدعاء هو: الاستغفار وإن لم يتب قلبه وينيب (فَإِذَا اجْتَمعت التَّوْبة والاستغفار فهو الكمال) وفي الغالب أنَّ من قال: أستغفر الله وأتوب إليه، وكان تلفظه بهذه الكلمة باللسان والقلب معًا فإنَّه يكون جامعًا لاثنتين؛ لأنَّنا عندما نقول ذكر القلب فإنَّنا نقصد بذكر القلب وسيأتي الإشارة إليه أنَّ المراد بذكر القلب هو استشعار معنى الكلمة التي تلفظت بها، فعندما تقول: أستغفر الله، استشعارك للاستغفار أن تستشعر فضل الله وكرمه ومنته حيث سيمحوا أثر هذا الذنب عنك، وحينما تقول: وأتوب إليه تستشعر أنَّك ستقلع عن الذنب، وأنَّك ممتنعٌ منه وأنَّك نادم على فعله.

قال: (الثَّالث: الأَعْمال الصَّالِحة المُكَفِّرة).

والأعمال الصالحة كثيرة جداً سيشير إليها المصنِّف بعد قليل وإن كان المرء مصرًا على

ذنبه، وإن كان مصرًا ولم يتب فإنَّ من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ بأمة محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه جعل لهم هذه الأعمال الصالحة المكفِّرة للذنوب وهي كثيرة.

قال: (* إِمَّا الكَفَّارات المُقَدَّرة).

هذا نوعٌ من أنواع الأعمال الصالحة المكفِّرة للذنوب، فذكر الأوَّل: (الكَفَّارات المُقَدَّرة) والكفَّارات المقدَّرة بمعنى أنَّ الشارع قدَّرها لذنبٍ معيَّن، ولذلك **العلماء يقولون**: «إنَّ المقصود من الكفَّارات الزجر والجبر» فالزجر لكي يمتنع ولا يكرر الفعل مرَّة أخرى، والجبر لتكفر ذنبه فهي جابرة للذنوب، ومثلها يقال أيضًا في الحدود أنَّ المقصود منها الزجر والجبر.

إذن: فالمكفَّرات المقدَّرة التقدير من الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا معنى **قولهم**: «أنَّه لا قياس في الكفَّارات»، الأصل عند كثيرٍ من أهل العلم أنَّ لا قياس في الكفَّارات بناءً على أنَّ التقدير من الله، ضرب أمثلة لذلك، **فقال**: (كَمَا يُكَفِّر المُجَامِع في رمضانَ) ومن جامع في نهار رمضان فإنَّه يكفِّر **بثلاثة أمور**: عتق رقبة، فإن لم يجد فإنَّه يصوم ستين يومًا متوالية، فإن لم يستطع فإنَّه يطعم ستين مسكينًا، هذا كفَّارة الجماع في نهار رمضان على الرجل والمرأة سواءً إذا كانت مطابعة.

والمظاهر الذي يظاهر من زوجته فيقول: هي عليه كظهر أمه أو نحو ذلك، فإنَّه يجب عليه أيضًا ما في الآية وهو تحرير رقبة فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين.

قال: (والمُرْتكِب لِبَعْض مَحْظُورات الحَجِّ).

المرتكب لمحظورات الحجِّ هي ما يسمَّى بالمحظورات، وفعل المحظورات بعضها

يجب فيه فدية دم، وبعضها يجب فيه بدنة، بعضها شاة وبعضها بدنة، وبعضها يخيَّر بين ثلاثة وهكذا، وبعضها مثل بالمثل، ومقوَّم في الدين.

قال: (أَوْ تَارِك بَعْضِ وَاجِبَاته). **أي**: واجبات الحجِّ لأثر ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنهُ في «**الموطأ**»: «**مَنْ تَرَكَ نُسُكًا فَعَلَيْهِ دَمٌ**» فمن ترك واجبًا من واجبات الحجِّ وجب عليه فديةٌ، وأمَّا فعل المحظورات ففيها تخييرٌ بين ثلاث: ففدية من صيام أو صدقة أو نسك.

قال: (أَوْ قَاتِل الصَّيْد بِالكَفَّارات المُقَدَّرة؛ وَهِي أَرْبعة أَجْناسٍ).

قوله: (أَوْ قَاتِل الصَّيْد) يشمل اثنين: قاتل الصَّيد في الحرم، وقاتل الصيد وهو محرِمٌ، فالقاتل في الصَّيد في الحرَم سواءً كان محرِمًا أو غير محرِم، وقاتل الصَّيد وهو محرِم سواءً كان في الحرَم أو غير الحرَم، فالحكم فيهما سواء.

ثمَّ ذكر أنَّ هذه الأجناس الأربعة: (هَدْيٌ، وَعِتْقٌ، وَصَدَقةٌ، وَصِيامٌ) لا تخرج عنها الهدي والدم، قد يكون بدنةً وقد يكون شاةً، والعتق وهذا واضح، **والصدقة وهي**: الإطعام قد تكون ستة، وقد تكون عشرة، وقد تكون ثلاثين وقد تكون أكثر من ذلك الستين وهكذا، والصِّيام يختلف باختلاف الذنب الذي فعله الآدمي.

قال: (وَإِمَّا الكَفَّارات المُطْلَقة: كَمَا قَال حُذَيْفةُ لِعُمَرَ: «**فِتْنَةُ الرَّجُل فِي أَهْله وَمَالِه وَوَلَده يُكَفِّرها الصَّلَاة، وَالصِّيَام، والصَّدَقَة، وَالأَمْر بِالمَعْروف، والنَّهْي عَن المُنْكَر**»).

قال المصنِّف: (الكَفَّارات المُطْلَقة) **أي**: غير المقيَّدة بذنبٍ معيَّن وإنَّما مطلقة فهي كثيرة جداً، وقد جاء في الأثر أنَّ حذيفة قال لعمر: «**فِتْنَة الرَّجُل فِي أَهْله وَمَالِه وَوَلَده**» **أي**: الذنوب

التي يفعلها مع أهله ويفعلها في ماله وولده تكفِّرها الصَّلاة والصِّيام والصَّدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا واضح فإنَّ الصَّلاة إلى الصَّلاة مكفِّرات للذنوب، والصِّيام إلى الصِّيام ورمضان إلى رمضان يكفِّر الذنوب بينها، والصَّدقة تمحو الذنوب والخطايا كما هو معلوم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أيضًا يكفِّر الذنوب، والأمر بالمعروف يشمل كلَّ معروف ومنه التعليم للناس فإنَّ الله وملائكته يصلون على معلِّم الناس الخير.

قال: (وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذلك: القُرآن، والأَحَادِيث الصِّحَاح فِي التَّكْفير بـ (الصَّلوات الخَمْس، والجُمعة، والصِّيَام، والحَجِّ)، وَسَائِر الأَعْمال الَّتي يُقَال فيها: «**مَنْ قَالَ كَذا، وَعَمِلَ كَذا = غُفِرَ لَه**»، أَوْ «**غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»؛ وَهِي كَثِيرةٌ لِمَنْ تَلَقَّاهَا مِن السُّنَن، خُصُوصًا مَا صُنِّف فِي فَضَائل الأعمال).

يقول المصنِّف أنَّ الأحاديث التي مرَّت في السنن كثيرة، ومرَّ معنا أنَّ بعضًا من أهل العلم جمعها كالسيوطي وغيرهم، لكن هنا ملحظ ذكره الشَّيخ في آخر كلامه: (وَهِي كَثِيرةٌ لِمَنْ تَلَقَّاهَا مِن السُّنَن) تعبير المصنِّف هنا بـ"السُّنَن" أراد أن يبيِّن أنَّ الأحاديث التي عُني العلماء بها على أنواع:

- بعضها متعلِّقٌ بالفضائل.
- وبعضها متعلِّقٌ بالأحكام.

فالمراد بـ"السُّنَن" هنا **أي**: السنن الواردة عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وليس كتب السَّنن الأربعة ونحوها ممَّن عُني بالأحكام، وقد عُني كثيرٌ من أهل العلم بجمع الأحاديث الواردة

في فضائل الأعمال على سبيل الخصوص، ومن الذين جمعوا ذلك واشتهرت كتبهم الضياء المقدسي فإنَّ له كتابًا لطيفًا جميلاً اسمه: «**فضائل الأعمال**» شرح هذا الكتاب السَّفَّاريني في كتابه «**تناظر العمَّال في شرح فضائل الأعمال**»، ومن الكتب الجميلة في هذا الباب ما جمعه المحدِّث عبد المؤمن الدمياطي في كتابه «**المتجر الرابح**» فإنَّ هذا الكتاب من الكتب الجميلة حقيقةً في جمع فضائل الأعمال، وكثيرٌ من أهل العلم يجمع ومنهم من جمع فضائل الأعمال من المسلمين أبو حفص بن شاهين ذكر ذلك، وبعض أهل العلم يجمع بين **نوعين**: الفضائل والزواجر ويسمي كتابه بـ«**الترغيب والترهيب**» **مثل**: قوام السنَّة الأصبهاني في كتابه «**الترغيب والترهيب**» والذي بنى المنذري كتابه عليه، فإنَّ المنذري في «**الترغيب والترهيب**» بنى فكرة الكتاب أساسًا على كتاب قوام السنَّة «**الترغيب والترهيب**»، وأيضًا ابن شاهين أظن اسم الكتاب في بعض النسخ يسمَّى بـ«**الترغيب والترهيب**» وإنَّما شُهِر في بعضها باسم «**فضائل الأعمال**».

المقصود: كثيرٌ من أهل العلم عُني بجمع فضائل الأعمال، وهم يتساهلون عادةً في شرط الصحة فيها كما جاء عن بعضهم: «إذا جاء الحلال والحرام شددنا وإذا جاء فضائل الأعمال تساهلنا» بشرط أن يكون أصل العمل مشروعًا، ولا يشرع أصل عملٍ بحديثٍ ضعيف، لكن إن كان أصل العمل مشروعًا وورد فيه حديثٌ ولم يكن ذلك الحديث منكرًا ولا شديد الضعف والوهاء فإنَّ أهل العلم قد تتابعوا على التساهل في إيراده سواءً في مصنفاتهم أو في وعظهم فيعظون به بالشرطين الذي ذكرتها قبل قليل، وهذا تتابع عليه أهل العلم منذ قرونٍ كثيرة بل نصُّوا عليه صراحةً، وبعضهم يقرُّ بعض على هذا المبدأ، ولذا فإنَّ التساهل باب في

مسألة المواعظ في خطب الجمعة ونحوها أو في المؤلفات التي ألفت لأجل تذكير الناس وتنبيههم وحثهم أو زجرهم عن بعض الأمور يتساهل فيه، وعلى ذلك دأب أهل العلم رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى **وقالوا**: «لأنَّ الباعث والدافع لنقل الأحاديث في الأحكام أقوى ممَّا يتعلَّق بفضائل الأعمال».

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَاعْلَم أَنَّ العِنَاية بِهَذا مِن أَشَدِّ ما بِالإنسان الحَاجةُ إليه؛ فَإِنَّ الإِنْسَانَ مِن حين يَبْلغ، خُصُوصًا فِي هَذِه الأَزْمِنة وَنَحْوها مِن أَزْمِنَة الفَتَرات الَّتي تُشْبِه الجَاهِلِيَّةَ مِن بَعْض الوُجُوه، فَإِنَّ الإنْسان الَّذي يَنْشَأُ بَيْن أَهْل عِلْمٍ وَدِين قَد يَتَلَطَّخ مِن أُمُور الجَاهِلِيَّة بِعِدَّة أَشْياءَ؛ فَكَيْف بِغَير هذا؟!).

يقول الشَّيخ: (وَاعْلَم أَنَّ العِنَاية بِهَذا) **أي**: العناية بمكفِّرات الذنوب تعلمًا وعملًا لها (مِن أَشَدِّ ما بِالإنسان الحَاجةُ إليه) لأنَّه ما من امرئٍ إلَّا وسيذنب ذنبًا، صغر ذلك الذنب أو كبر، علم حقيقته أو لم يعلمه فهو محتاجٌ لمكفِّرات الذنوب.

قال الشَّيخ: (فَإِنَّ الإِنْسَانَ مِن حين يَبْلغ) **قوله**: (مِن حين يَبْلغ) وهو: بلوغ سن التكليف **بمعنى**: أن يبلغ عاقلًا وحينئذٍ يبدأ القلم في الكتابة، «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثٍ» فهذه للغاية فدلَّ على أنَّ بعد البلوغ والعقل يحصل به التكليف.

قال: (مِن حين يَبْلغ، خُصُوصًا فِي هَذِه الأَزْمِنة) هذه جملة اعتراضية (وَنَحْوها مِن أَزْمِنَة الفَتَرات الَّتي تُشْبِه الجَاهِلِيَّةَ مِن بَعْض الوُجُوه) **يقول الشَّيخ**: أنَّ الناس عمومًا من حين يبلغ يقع في الذنوب وخاصةً في هذه الأزمنة في زمانه وما بعده؛ لأنَّ هذه الأزمنة فيها أمران فشت بين الناس، وكان هذان الأمران قليل في الزمان الأولى القرون الفاضلة الأولى عصر الصَّحابة

والتابعين وتابعيهم، أوَّل هذه الأمور هو: فشو الجهل، وعندما نتكلم عن الجهل فالمقصود به الجهل النسبي، وذلك أنَّ العلم في عهد النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان سهلًا ميسورًا لا خوض فيه ولا جدل ولا فيه مراء ولا يوجد فيه تلبيس لأهل الباطل، فالحق واضحٌ بيِّن والوصول إليه سهل، ولذلك كان العلم فاشيًا في المدينة وما حولها.

الأمر الثاني: فشو الشهوات؛ فإنَّ الشهوات تفشو لأجل بعد الناس عن عصر النبوة، فالشهوات تكثر سواءً شهوة المال أو شهوة الفرج أو شهوة الشرف أو غيرها من الشهوات التابعة لهذه الشهوات، وقد جاء عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه **قال**: «**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ هُمَا أَفْسَدُ عَلَى دِينِ الْمَرْءِ مِنْ حُبِّ الْمَالِ وَالشَّرَفِ**» فهذان الأمران الشهوة فيهما أعلى وقد كانت ضعيفةً في ذلك الزمان في الزمان الأوَّل زمن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه.

إذن: هذا المقصود، **وقوله**: (فِي هَـذِه الأَزْمِنة وَنَحْوها مِن أَزْمِنَة الفَترات) إشارة لذلك **أي**: فترة العلم عندما يجهل الناس، ولكن مع وُجود فترة إلَّا أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لا يقطع العلم عن عموم الناس «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ**» فالدين ظاهر باق إلى قيام السَّاعة، لكنه يظهر في بلد ويختفي في أخرى ويقوى في بلدٍ ويضعف في ثانية.

وقوله: (الَّتي تُشْبِه الجَاهِلِيَّةَ مِن بَعْض الوُجُوه) هذه الجملة تحتاج إلى وقفة فإنَّ مشابهة الجاهلية من بعض الوجوه لا يدلُّ على الشبه المطلق فإنَّ من ظنَّ الشبه المطلق أخطأ ووقع في تكفير الناس وإخراجهم من الملَّة بحجة مشابهة الجاهلية المطلقة فجعلهم كُفَّارًا كالجاهلية الأولى وليس ذلك كذلك، وإنَّما هناك شبهٌ بين الناس الذين يقصرون بعض

التقصير وبين أهل الجاهلية، سواءً كانت الجاهلية في جزيرة العرب أو في غيرها، **المقصود**: من غير المسلمين عمومًا، ولذلك لمَّا استدلَّ بعضهم بآيات الكفَّار في تخويف العصاة، **قال العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَى**: «إنَّ هذا صوابٌ من وجه وخطأٌ من وجه فهو خطأٌ إن نزلت آيات الكفَّار في العصاة في الحكم عليهم بكفرهم وإخراجهم من الملة وإن نزلتها من باب العظة والتذكير فحسن»، وقد جاء ذلك عن العلاء كما في «**البخاري**» وغيره، فما زال أهل العلم يعظون من يتلبس بمعصية بآيات نزلت في الكفَّار، إذ كلام الله عَزَّوَجَلَّ له عموم لفظ وخصوص سبب، وخصوص السبب مُندرجٌ قطعًا في عموم اللفظ، لكن عموم اللفظ يشمل كلَّ عاصٍ لله عَزَّوَجَلَّ، هذا يجب أن ننتبه لها وهو ملحظ من أخطأ فيه **يعني**: اتجه **الاتجاهين**:

- إمَّا المشابهة المطلقة بأهل الجاهلية فكفَّروا المجتمعات.
- وإمَّا أن يقول: أنَّ آيات الكفَّار هذه إنَّما هي لسنا مخاطبين بها وأنَّ العصاة يكونون كالطائعين في إيمانهم وكماله وهذا من مداخل الشيطان العظيمة.

قال: (فَإِنَّ الإِنْسان الَّذي يَنْشَأُ بَيْن أَهْل عِلْمٍ وَدِين قَد يَتَلَطَّخ مِن أُمُور الجَاهِلِيَّة بِعِدَّة أَشْياءَ)

من نِعَم الله عَزَّوَجَلَّ على المرء أن ينشأ المرء بين أهل علم ودين، يعلمونه الدين وأهل دين يحثونه عليه، فكم من امرئٍ يكون محبًا للدين، لكن بيئته التي نشأ فيها وأهله الذين عاش معهم يمنعونه من ذلك، فإن امتنَّ الله عَزَّوَجَلَّ على الإنسان بأن نشأ بينهم فإنَّ هذه نعمةٌ عظيمة، ولذلك لمَّا ذكر النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ**» خاض الصَّحابة فيهم، **قال بعضهم**: «هم الذين ولدوا في الإسلام» لمَّا علموا ذلك ظنُّوا أنَّ من نشأ بين أهل علم ودين في الإسلام سيكون من أكمل الناس، ومع ذلك بيَّن النبيُّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه ليس كذلك، نعم هي نعمة لكن كثيرٌ ممَّن ينشأ بين أهل علم ودين قد يتلطخ من أمور الجاهلية، إمَّا أن يعتاد على الدين فلا يصبح مستمكنًا من قلبه اعتاد **يعني**: أن يكون قد فعله من باب العادة وليس من باب الإيمان التام وإن كان الإيمان المطلق موجود، وإمَّا أن يكون من باب ما دخل على ذلك المجتمع من بعض الأخطاء والجاهلية التي تأتي إمَّا من شبهة أو شهوة.

قال: (فَكَيْف بِغَير هذا؟!) كيف من كان في مكان بعيد عن أهل العلم والدين؟ ولا شكَّ أنَّ كلَّما أقرب لأهل العلم والدين كلَّما كان أتم لحاله وأصلح.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَفِي «**الصَّحيحين**» عَن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن حَديث أبي سعيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لَتتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْو القُذَّةِ بِالقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ**»، قالوا: يا رسول الله؛ اليَهُود وَالنَّصارى؟ قَال: «**فَمَنْ!؟**».

هَذَا خَبَرٌ تَصْدِيقُه فِي قوله تعالى: ﴿**فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا**﴾ [**التَّوبة**:٦٩].

وَلِهَذا شَوَاهِدُ فِي الصِّحَاح والحِسَان).

هنا أورد المصنِّف حديثًا وقال أنَّ هذا الحديث قصده وهو تصديق لما في كلام الله عَزَّ وَجَلَّ، نبدأ بالحديث ثمَّ نأتي بالآية.

الحديث ما ثبت في الصحيحين أنَّ **النبيَّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قال**: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ**» **أي**: طريق «**مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْو القُذَّةِ بِالقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ**»، **قالوا**: يا رسول الله؛ اليَهُود وَالنَّصارى؟ **قال**: «**فَمَنْ!؟**» هذا الحديث فيه أنَّ الناس جميعًا من أمة محمد

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيتبعون طريقة من كان قبلهم، وإن لم يكن دخولًا في دينهم وخروجًا من الملَّة ولكنه اتباعٌ للسَنن فهو مشابهة لهم في بعض أفعالهم الجاهلية، ولم يخرجهم من الإسلام لأنَّه ولذلك **قال**: «لَتَتَّبِعُنَّ» أيُّها المسلمون «سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» فما زلتم مؤمنين مسلمين ولكن تلبستم ببعض أوصاف الجاهلية التي ليست من أوصاف الإسلام «حَذْو القُذَّةِ بِالقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ» وهذا الذي قصده النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هما أمران، ليس المقصود التفصيل وإنَّما المقصود أمران الذي ذكرهما الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه حينما **قال**: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة] **فالمغضوب عليهم هم**: اليهود عرفوا الحق وتركوه، **والضَّالون هم**: النصارى جهلوا الحق وتعبدوا الله بجهل، ولذلك الناس في اتباعهم سَنن من كان قبلهم المقصود به أساسًا على سبيل الإجمال هذان **الأمران**:

- أن يعرف الحق ويترك ذلك الحق نفاقًا أو عنادًا أو رغبة في دنيا أو غير ذلك من الأسباب.
- **والأمر الثاني**: أن يكون جاهلًا بالحق، فيتعبد الله عَزَّ وَجَلَّ على جهل وعلى غير هدى، وهذا هو المقصود أساسًا بهذا الحديث وما عدا ذلك هو متفرع عن ذلك، ولذلك **قال الشَّيخ**:

(هَذَا خَبَرٌ تَصْدِيقُه في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة:٦٩]) **قول الله** جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ﴾ المراد بالخلاق هو: النصيب من الدنيا **أي**: استمتعتم بنصيبكم من الدنيا ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ هذا معنى **قوله**: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»، ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ﴾ **أي**: بنصيبهم من الدنيا ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾

قول الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿كَالَّذِي﴾ الأظهر والأقرب – والله أعلم – أنَّ قوله: ﴿كَالَّذِي﴾ صفةٌ لمصدر فحينئذٍ يكون معناها: وخضتم كالخوض الذي خاضوه، وحينئذٍ فيكون عائدًا لمحذوف، وهذا هو الأقرب في تأويل هذه الآية أنَّ ﴿كَالَّذِي﴾ يعود لمصدر أنَّه صفة لمصدر، وذكر أهل العلم أنَّ هذه الآية وهي قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ﴾ هذه صفة، والصفة الثانية: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ فجمعت هذه الآية بين أمرين: الاستمتاع بالخلاق والخوض، فأمَّا الأمر الأوَّل: فهو الذي يسمَّى بالشهوات وهو: فسق الأعمال، فإنَّ المرء يستمتع بالدنيا مع علمه بالمنع من بعض تصرفاته فيها.

والأمر الثاني وهو: قوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ هو الشبهات وهي البدع والمحدثات التي تكون عند الناس من المسلمين ومن قبلهم كما في هذه الآية بسبب جهلهم بشرع الله عَزَّوَجَلَّ، ولذلك يقول أهل العلم: «إنَّ فساد الدين لا يخرج عن هذين السببين: إمَّا فساد الاعتقاد وإمَّا العمل بخلاف الاعتقاد» لا يوجد غير هذين الأمرين: فساد الاعتقاد ويؤدِّي فساد الاعتقاد إلى الوقوع في البدع والمحدثات والتكلم في شرع الله عَزَّوَجَلَّ بغير ما شرع، وإمَّا بالعمل بخلاف الاعتقاد وهو الوقوع في الكبائر والذنوب ونحو ذلك من الأمور وأشدها النفاق – نسأل الله السلامة –.

طبعا، وقول المصنِّف: (وَلِهَذا شَوَاهِدُ في الصِّحَاح والحِسَان) التعبير بين الصحاح والحسان مسالك معروفة في كتب الحديث ما الفرق بينها؟ المتأخرون بعد ذلك حملوا الحسنة على ما خف ضبطه، وبعض أهل العلم ومنهم البغوي في «**المصابيح**» حمل الصحاح

على ما جاء في كتب معينة، والحسان على الأحاديث الصحيحة التي وردت في غير هذه الكتب وهو «**الصحيحين**» فكلُّ ما ورد في السنن فإنَّه يسمَّى "حسانًا" وعلى العموم المصطلح **يعني**: له دلائل مختلفة.

قال: (وَهَذَا أَمْرٌ قد يَسْرِي في المُنْتَسِبين إلى الدِّين من الخَاصَّة، كَمَا قال غير واحدٍ من السَّلَف، مِنْهم ابن عُيَيْنَة).

قول ابن عُيَيْنَة: «أنَّ من زل من عباد هذه الأمة ففيه شبهٌ من النصارى، ومن زل من علماء هذه الأمة ففيه شبهٌ باليهود» فالعالم يعرف الحق ويتركه لشهوة مال أو لشهوة شرف أو لغيرها من شهوات الدنيا فعرف الحق وتركه، والعابد يتعبد الله عَزَّوَجَلَّ على غير هدًى وبصيرة فيقع في المحدثات، ثمَّ يأتي ذلك العالم فيبرر تلك المحدثات رغبةً في الدنيا، وذلك ما وقع فسادٌ في أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَّا بأحد هذين السببين الذين أُمرنا في كلِّ صلاةٍ أن نستعيذ بالله منهما.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَإِنَّ كَثِيرًا من أحوال اليهود قَدِ ابْتُلِيَ به بَعْضُ المُنْتَسِبين إِلَى العِلْم، وَكَثِيرًا من أَحْوال النَّصارى قَد ابْتُلِي به بعض المُنْتَسِبين إِلَى الدِّين، كَمَا يُبْصِرُ ذَلِك مَنْ فَهِمَ دين الإِسْلَام الَّذي بَعَثَ الله بِه مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ نَزَّلَه عَلَى أَحْوَال النَّاس).

هذا كلام الشَّيخ يقرِّره كثيراً في عشرات المواضع في قضية ما يتعلَّق بالشبه بأهل الكتاب من اليهود والنصارى من العلماء والعبَّاد إنَّما يقع بسبب هذا الأمر.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَإِذَا كَانَ الأَمْر كَذَلِك، فَمَنْ شَرَحَ الله صَدْرَهُ لِلإِسْلَام فَهُو عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّه، وَكَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَاه الله وَجعَل لَه نُورًا يَمْشِي به في النَّاس = لَا بُدَّ أَنْ يُلَاحِظ أَحْوال الجَاهِلِيَّة

وَطَرِيق الأُمَّتَيْن (المَغْضُوب عَلَيْهِم، والضَّالِّين من اليَهود والنَّصارى)؛ فَيَرى أَنْ قَد ابْتُلِي ببعض ذَلك).

ولذلك يقول الشَّيخ: (وَإِذَا كَانَ الأَمْر كَذَلِك) وهو ما تقرَّر في الكتاب والسنَّة أنَّ الناس سيقعون في هذين الأمرين وهو: ضلال العلماء وخطأ العبَّاد بسبب الجهل أو بسبب تعمد الخطأ، (فَمَنْ شَرَحَ الله صَدْرَهُ لِلإِسْلَام) وهذا هداية من الله عَزَّوَجَلَّ (فَهُو عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّه) فكان على نور من الله عَزَّوَجَلَّ قذفه الله عَزَّوَجَلَّ في قلبه فأحبَّ الهداية والدين (وَكَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَاه الله عَزَّوَجَلَّ) والحياة إنَّما تكون بالكتاب والسنَّة (وَجَعَل لَه نُورًا يَمْشِي به في النَّاس) هذا النور الذي يمشي به في الناس هو العلم (لَابُدَّ أَنْ يُلَاحِظ أَحْوال الجَاهِلِيَّة) لابدَّ أن يعرف أحوال الجاهلية إمَّا قصدًا بمعرفة تلك الأوصاف أو يلحظها بملاحظة أفعال الناس حينذاك، وهذا معنى الأثر الذي جاء عن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**إِنَّمَا يَنْقُضُ الْإِسْلَامُ عُرْوَةً عُرْوَةً إِذَا نَشَأَ فِي الْإِسْلَامِ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ الْجَاهِلِيَّةِ**» فمن لم يعرف الجاهلية حقيقةً أو لم يعرف الجاهلية من باب الصفة لها فإنَّه حينئذٍ قد يدخل عليه من مداخل الشر الشيء العظيم، ولذلك **قال**: (لَا بُدَّ أَنْ يُلَاحِظ أَحْوال الجَاهِلِيَّة وَطَرِيق الأُمَّتَيْن (المَغْضُوب عَلَيْهِم، والضَّالِّين من اليَهود والنَّصَارى)؛ فَيَرى أَنْ قَد ابْتُلِي ببعض ذَلك) أوَّل ما يجب على طالب العلم أن ينظر ويعيب نفسه قبل أن يعيب على الآخرين، كثيرٌ ممَّا نراه من كتابة بعض طلبة العلم إذا أراد أن يتكلم عن بعض الأمور فإنَّه يبتدأ بنقد الآخرين ويسلِّم لنفسه كمال التسليم، وكأنَّه ليس بذلك المذنب ولا بذلك المخطئ، ويجب على الإنسان دائمًا قبل أن ينظر في عيوب الآخرين أن ينظر في عيبه وينظر ما نقص في شأنه وحينئذٍ إذا سعى في إصلاح نفسه وفَّقه الله عَزَّوَجَلَّ في كلمةٍ يقولها في إصلاح

غيره، وهذا معنى كلام الشَّيخ: (فَيَرى أَنْ قد ابتلى) هو أو (ابْتُلِي ببعض ذَلك) فينظر في حاله أولاً ويسعى لتصحيح ذلك الحال بالانكفاف وبإتباع السيِّئة بالحسنة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَأَنْفَعُ مَا لِلخَاصَّةِ وَالعَامَّة: العِلْمُ بِمَا يُخَلِّصُ النُّفُوس مِن هَذه الوَرطَات، وَهُو إِتْبَاع السَّيِّئَاتِ الحَسَنَات.

و(الحَسَنات): مَا نَدَبَ الله إِلَيْه عَلَى لِسَان خَاتَم النَّبِيِّين من الأعمال، والأَخْلاق، والصِّفَاتِ).

يقول: هذه ثمَّ بعد أن قرَّر ذلك كلَّه بيَّن الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى أنَّ أعظم وأنفع ما يكون (لِلخَاصَّةِ) من أهل العلم (وَالعَامَّة) عموم الناس، فهي وصية للخاصَّة كمعاذ ومن شابه معاذ من طلبة العلم وعموم المسلمين (بِمَا يُخَلِّصُ النُّفُوس مِن هَذه الوَرطَات) ورطات السيِّئات وكلام رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلَّ حسنة يمحو بها كلَّ سيِّئة وتكون من جنسها، فإنَّ من عُني بعلم كلامٍ وخوضٍ في دين الله عَزَّوَجَلَّ بغير ما شرع إذا انشغل بقراءة كلام الله عَزَّوَجَلَّ والنظر فيه وفي كلام رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقراءته فقط فإنَّه سيجد خروج هذه الشبهات من قلبه ودخول نور الإيمان قلبه إليه كذلك، ومثله يقال أيضاً في عشرات الأعمال، فأتى المصنِّف بكلمة جامعة في بيان الحسنات ما هي؟ **قال**: (و(الحَسَنات): مَا نَدَبَ الله إِلَيْه عَلَى لِسَان خَاتَم النَّبِيِّين من الأعمال، والأَخْلاق، والصِّفَاتِ) **الأعمال**: أفعال الجوارح **والأخلاق** التي تكون كذلك في أفعال الجوارح ولكنها صفات لازمة، أمَّا الأعمال فإنَّها طارئة **والصفات** هي أشمل من ذلك، فإنَّ الصفة قد تكون لهيئة اللباس وقد تكون لهيئة الفعل وقد تكون لصفةٍ ملازمةٍ متعلقةٍ بالقلب، ولذلك فإنَّها أمورٌ مختلفة كلها مندوب إليها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَمِمَّا يُزِيل مُوجِبَ الذُّنُوب: المَصَائب المُكَفِّرة.

وَهِي كُلُّ مَا يُؤْلِم مِنْ هَمٍّ، أَوْ حُزْنٍ، أَو أَذًى فِي مَالٍ أَوْ عِرْضٍ أَو جَسَدٍ، أَوْ غَيْر ذَلك، لَكِن لَيْس هَذَا مِن فِعْل العَبْد).

بعدما ذكر أنَّ المكفِّرات **منها**: المكفِّرات المقدرة، **ومنها**: المكفِّرات غير المقدرة، بيَّن أنَّ المكفِّرات غير مقدرة بعضها أعمال وبعضها مطلق الحسنات، ومن المكفِّرات غير المقدرة لكن هذه ليست من فعل العبد الابتلاء الذي يصيب الله عَزَّوَجَلَّ بها العبد.

قال: (وَمِمَّا يُزِيل مُوجِبَ الذُّنُوب: المَصَائب المُكَفِّرة.

وَهِي كُلُّ مَا يُؤْلِم مِنْ هَمٍّ، أَوْ حُزْنٍ، أَو أَذًى فِي مَالٍ أَوْ عِرْضٍ أَو جَسَدٍ، أَوْ غَيْر ذَلك، لَكِن لَيْس هَذَا مِن فِعْل العَبْد) وإنَّما هو بإرادة الله عَزَّوَجَلَّ وتقديره سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ولذلك لا يزال البلاء بالعبد المؤمن حتَّى يمشي على الأرض وليست عليه خطيئة، وإذا جيء يوم القيامة وعرضت صحائف الأعمال جاء أنَّ الناس يتمنون أن يكونوا من أشد الناس بلاءً في الدنيا لما يرونه يوم القيامة من تكفير الذنوب ورفعة الدرجات لمن ابتلي في الدنيا، وهذا معنى قول بعض السلف من التابعين كأبي رافع: «كانوا يفرحون بالبلاء أشد من فرحهم بالعطاء» أشد الناس بلاءً الأنبياء ثمَّ الأمثل فالأمثل يبتلى الناس على قدر دينهم، وما يزال البلاء بالرجل المؤمن حتى يمشي على الأرض وليست عليه خطيئة.

المقصود: من هذا كلِّه أنَّ الإنسان يعرف أن هذه البلايا التي تصيب المرء مكفِّراتٌ لذنوبه وهي رحمةٌ من الله عَزَّوَجَلَّ له ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥]، ﴿الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ

يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت]، وقول المصنِّف هنا بدأ المصنف بـ"همٍّ" لأنَّ أعظم ما يكفِّر الله عَزَّوَجَلَّ به الذنوب الهمُّ، وقد جاء في كتاب «**القدر**» لعبد الله بن وهب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعَالَى أنَّ **الحسن بن أبي الحسن البصري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعَالَى **قال**: «أعظم ما يجده المؤمن في صحيفة حسناته يوم القيامة ما أصيب به من همٍّ وحزن في الدنيا» فالهمُّ أمره عظيم ولذلك أصيب النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بهمٍّ عظيم لم يصب به أحد.

ثمَّ قال: (أَوْ حُزْنٍ) والفرق بين الهمِّ والحزن **الهم**: للأمر المستقبل **والحزن**: على ما مضى، إذا فقد حبيبًا أو عزيزًا أو مالًا أو وظيفةً أو غير ذلك من الأمور.

قال: (أَو أَذًى فِي مَالٍ أَوْ عِرْضٍ) العرض المقصود الكلام فيه وفي عرضه (أَو جَسَدٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلك، لَكِن لَيْس هَذَا مِن فِعْل العَبْد) وإنَّما هو من فعل الجبَّار جَلَّوَعَلَا وهو رحمة للمؤمن دون من عداه ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ فهو بشرى للصابرين والمؤمنين.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَلَمَّا قَضَى بِهَاتَيْن الكَلِمَتَيْن حَقَّ الله مِنْ عَمَل الصَّالح وَإِصْلاح الفَاسد قَال: «**وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»، وَهُو حَقُّ النَّاس.

وَجِمَاع الخُلُقِ الحَسَن مع النَّاس: أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَك؛ بالسَّلام، والإكرام، والدُّعاء له، والاستغفار، والثَّناء عليه، والزِّيارة له، وتُعطي مَنْ حَرَمَك مِن التَّعليم، والمنفعة، والمال، وتعفو عمَّنْ ظَلَمَك في دمٍ، أو مالٍ، أو عِرْضٍ. وبعضُ هذا واجبٌ، وبعضُه مُسْتَحَبٌّ).

ربطًا لأوَّل الكلام بآخره فإنَّ المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعَالَى سأله أبو القاسم المغربي أربعة

وصايا، وأوَّل وصيةٍ سأله إياها سأله أن يعطيه ويكتب له بوصيةٍ جامعةٍ تامةٍ، فلمَّا بيَّن الوصية الأولى ذكر له حديث النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ «اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ» فبيَّن التقوى ومعناها ثُمَّ بيَّن إتباع السيِّئة الحسنة ثمَّ شرع الآن بالجزء الثالث من الوصية الكاملة الجامعة التي أوصى بها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاذًا أن يخالق الناس بخلق حسن، **قال**: (فَلَمَّا قَضَى بِهَاتَيْنِ الكَلِمَتَيْنِ حَقَّ الله مِنْ عَمَلِ الصَّالح وَإِصْلاح الفَاسد) الكلمتين: «اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ» من امتثلها فقد أدَّى حق الله عَزَّوَجَلَّ عليه، والكلمة الثانية: وهي قول النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا» من امتثلها فإنَّه يصلح بها الفاسد من قوله وعمله، فيتم إصلاح الفاسد بها، **قال**: (لمَّا ذكر هاتين الكلمتين) التي يتحقَّق بهما هذان الهدفان وهاتان الغايتان، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ» **قال**: (وَهُو حَقُّ النَّاس) **أي**: أنَّ هذا يتعلَّق به حق الناس.

وقبل أن أبدأ بشرح ما ذكره المصنِّف، لا شكَّ أنَّ للعباد على المسلم حقوقٌ متعدِّدة، بعضها يقوى بسبب قرابة كوالدين وإخوة، أو بسبب صفةٍ كجيران ونحوهم، أو بسبب دينٍ فإنَّ حق المسلم على المسلم أعلى من حق غير المسلم على المسلم، وهناك حقوقٌ مشتركةٌ بين الجميع، ومن امتثل أمرًا واحدًا للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو **قوله**: «وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ» فإنَّه حينئذٍ يمتثل ويؤدِّي جميع حقوق العباد عليه، برِّهم وفاجرهم، مُحسنهم ومسيئهم، من وجب الحق عليه ومن نُدب له، ولذلك **قال المصنِّف**: (وَجِمَاع الخُلُقِ الحَسَن مَع النَّاس) أمور **قال أوَّلها**: (تَصِلَ مَنْ قَطَعَك) سواءً كان من الرحم أو من غيرها، ومن وصل من قطعه من باب أولى أن يصل من لم يقطعه أو كان بارًا به وهذا من باب الدِلالة الأولى

وفحوى الخطاب، **قال**: (بالسَّلام، والإكرام) نصُّه على السلام خاصةً لأنَّه رُوي في خبرٍ عند الشجري في أماليه واحتجَّ به الإمام أحمد أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قال**: «**صِلُوا**» وفي لفظٍ «**بِلُّوا أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بِالسَّلَامِ**» **قالوا**: «**وَلَوْ**» هنا للتقليل فأقل ما يحصل به صلة الرحم بأن يسلم عليهم فالواجب ردُّ السلام والمندوب ابتداؤه، فالمندوب ابتداؤه فمن سُلِّم عليه من رحمه ولم يرد السلام عليهم فهو قاطع، ومن ابتدأهم بالسَّلام فهو واصلٌ، وبين الواصل والقاطع من التفت عنه الصفتان فليس بواصلٍ ولا بقاطع.

المقصود: من هذا أنَّه لمَّا **قال**: (أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَك؛ بالسَّلام) النصُّ على السَّلام للأثر الوارد واحتجَّ به أحمد وغيره.

قال: (والإكرام) **والإكرام يشمل أمورًا متعدِّدة**: كرم المال وكرم اللسان ومن الكرم كف الأذى، ولذلك فإنَّ من الكرم ما هو واجب كالنفقة على الأقارب الذين تجب نفقتهم سواءً كانوا أصولًا أو فروعًا أو كانوا من الحواشي، وتفصيل ذلك في باب النفقة من كتب الفقه.

قال: (والدُّعاء له) **أي**: والدعاء لمن وصل لرحمه التي قطعها، وقد استدلَّ الشَّيخ تقي الدين رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في بعض كتبه بما جاء في الحديث **عند بعض أهل السنن**: «**أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَهُ رَجُلٌ أَنَّ لَهُ قَرَابَةً يَصِلُهُمْ وَأَنَّهُمْ يَقْطَعُونَهُ، فَقَالَ: فَأَيْنَ أَنْتَ عَنْ الِاسْتِغْفَارِ؟**» فاستدلَّ به الشَّيخ تقي الدين أنَّ هذا الاستغفار يكون لهم، ولذلك فإنَّ من أقل حق القريب على قريبه أن يدعو له، ومن ذلك بيَّن العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أنَّ صلة الرحم درجتان بخلاف القطعي، فأمَّا الرحم التي يجب صلتها من حيث الأفعال فهي ثلاثة أشياء أو أربعة أقلُّها أن يصله بالسَّلام.

- **والأمر الثاني**: أن ينفق عليه إن وجبت النفقة عليه.
- **والأمر الثالث**: أن يدعو له.
- **والأمر الرابع**: أن يكف الأذى عنه لأنَّ أقل شعب الإيمان كف الأذى.

قال: (والدُّعاء له، والاستغفار) وهو من باب عطف الخاص على العام. (والثَّناء عليه) **أي**: والثناء على القريب؛ لأنَّ ذمه وغيبته وذِكر مساوئه من الأمور المنهي عنها فتكون قطيعةً، وضدها بضدها والسكوت وسط، وحينئذٍ لمَّا يكون مثنيًا على قريبه الذي نهي عن قطيعته فإنَّه يكون **يعني**: قد أتى بصلة الرحم وهو من مكارم الأخلاق.

قال: (والزِّيارة له) وهذه واضحة.

قال: (وتُعطي مَنْ حَرَمَك) **أي**: منعك، **والحرم قد يكون في أشياء منها**: التعليم، وهذه من الأمور المهمة، ولعلِّي أقف معها في دقيقة مع ضيق الوقت، إنَّ من الأمور التي يقع فيها بعض طلبة العلم والشَّيخ في وصيته هذه التي بين أيدينا كتبها لطلاب العلم، وأشار لهذا المعنى في المقدمة كما مرَّ معنا أن ممَّا يقع فيه طلبة العلم أحيانًا الشح والظن بالعلم، فإنَّ أبخل البخل أن تبخل بالعلم كم من امرئٍ عرف فائدة فبخل على الناس بها خشية أن تنسب لغيره وهو عندما يبخل بهذا العلم يحرم نفسه الأجر ويُضيِّع على نفسه الخير ويعاقب بحرمانها فكم من امرئٍ عرف مسألةً وفتح عليه فيها فلمَّا لم يعلمها غيره وينشرها بين الناس عوقب بحرمانها ونسيانها، وكم قال من أهل العلم من السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ لمَّا ذكر ذنبًا من الذنوب التي وقع فيه **قال**: «فعاقبني الله بنسيان العلم» فمن العقوبات الخاصة بطلبة العلم أن ينسوا العلم هذه عقوبة نبَّه عليها جماعة من علماء الأمَّة ولذلك من أراد أن ألَّا ينسى علمه وألَّا يفوت

عليه ما فتحه الله عَزَّوَجَلَّ عليه من فهم فليعلِّم الناس وهذا يدلُّنا على أنَّ البخل بالعلم وعلى أنَّ الشحَّ به ذنبٌ يعاقب المرء بضده وهو الحرمان والنسيان.

قال: (والمال) أن يبذل المرء ماله لمن حرمه ولو كان جارًا قد بخل عليه بمالٍ فإنَّه يكرمه بمال وطعام، وليس المقصود بالمال أن تسرف في بذله وعطيته، وإنَّما المقصود أن تبذله ولو كان يسيرًا والناس في بذلهم المال أنواع: فمن الناس من يكون كريم المال بالنقد فيعطيك نقدًا، وبعضهم من يكون كرمه بالمال كرم طعامٍ فيبذل المال طعامًا ولا يبذله نقدًا، ومن الناس من تكون كرامته بالمال إقراضًا وهو نوعٌ من الكرم وصور الكرامة بالمال أو الكرم بالمال متعدِّدة جدًا وليست صورة واحدة، ولكن أشير وأذكر بعض أنواعها للتنبه لهذا المسلك.

قال: (وتعفو عمَّنْ ظَلَمك) وكلُّ ذلك جاء في هذه الألفاظ التي أوردها المصنِّف كلها وردت عن نبيِّنا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، **قال**: (وتعفو عمَّنْ ظَلَمك) ممَّن ظلمك في عرضك وبشرك أو ظلمك في مالك ونحو ذلك، فمن اعتدى عليك وظلمك فعفوت عنه فإنَّ هذا من مكارم الأخلاق، ولا يلزم أن يكون العفو عند المقدرة فإنَّ العفو عند المقدرة كمال، كمالٌ في العفو لأنَّه قادر على الانتصار فيعفو، ولكن العفو عند عدم المقدرة كذلك مكارم أخلاق، ففي الحالتين هو كرم خلق، ولكن الباعث في الأوَّل أعلى، وكم من الناس يعفو مطلقًا فإذا كان قادرًا لم يعفو، ولذلك ناسب العفو مطلقًا ولا يؤجل العفو لحين المقدرة.

قال: (وتعفو عمَّنْ ظَلَمك في دمٍ، أو مالٍ، أو عِرْضٍ.

وبعضُ هذا واجبٌ، وبعضُه مُسْتَحَبٌّ.) وتمت الإشارة لبعض الواجب والمستحب.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَأَمَّا الخُلُق العَظِيم الَّذي وَصَفَ به مُحَمَّدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَهُو الدِّينُ الجَامِع لِجَمِيعِ مَا أَمَرَ الله به مُطْلَقًا؛ هَكَذَا قال مُجَاهِدٌ وغيره، وَهُو تَأْويل القُرآن؛ كما قالت عائشةُ : «كَانَ خُلُقُه القُرْآنُ»، وحَقِيقته: المُبَادرة إلى امتثال ما يُحِبُّه الله تَعالى بِطِيبِ نَفْسٍ وَانْشِرَاح صَدْرٍ).

هذه مسألة قد يقع من بعض طلبة العلم بعض التردد فيها حينما يسمعون ويقرأون قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤] كثيرٌ من الناس يظن أنَّ المراد بقول الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الآية: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ أي: الأخلاق التي هو عليها صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وليس الأمر كذلك فإنَّ عامة المفسرين من السلف على أنَّ المراد بالخلق هنا هو الدين لأنَّ الدين يسمَّى في لسان اللغة خلقًا فكأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: "إنَّك لعلى دين عظيم" وهذه الآية تدلُّ على معنيين:

❁ المعنى الأوَّل: أنَّ هذا صفة في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ صفة للخلق الذي هو الدين، فالإسلام هو دينٌ عظيم بل هو أعظم دينٍ شرعه الله عَزَّوَجَلَّ للناس وقد امتنَّ الله عَزَّوَجَلَّ على هذه الأمَّة المتأخرة زمانا الضعيفة بدنًا بهذا الدين العظيم الذي يشمل مناحي الحياة كلها، ومع ذلك فإنَّه يؤجر عليها أجورًا عظيمة يوم القيامة على أعمال قليلة يفعلها.

❁ والأمر الثاني: الأمر أن يكون العظيم صفة لامتثال النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للدين، وعلى ذلك فيكون فعل النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وامتثاله لهذا الدين عظيم وهو كذلك، فإنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حركاته وسكناته وقيامه وقعوده ورقدته وفي شأنه كله ممتثلٌ أمر الله عَزَّوَجَلَّ

ووحيه له حتَّى في اجتهاده عند من يقول وهو **كثيرٌ من أهل العلم**: «أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجتهد قيل: في أمور الدنيا اتفاقًا وفي بعض أمور الشرع» على قول بعض الأصوليين دون بعضهم.

المقصود: من هذا أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على دين في امتثاله، ولذلك **قال المصنِّف**: (وَأَمَّا الخُلُق العَظِيم) استدراك لكي ينتبه طالب العلم لهذه المسألة الذي وصف الله به محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الآية: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (فَهُو الدِّينُ الجَامِع لِجَمِيعِ مَا أَمَرَ الله به) ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ **أي**: أنَّك على دينٍ عظيمٍ يجمع كلَّ الأمور من الأقوال والأفعال والعبادات والأخلاق والمعاشي والأمور العامة والخاصة فهو يجمع كلَّ ما أمره الله عَزَّوَجَلَّ أو أمر الله عَزَّوَجَلَّ به في كتابه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وفيما أوحاه لنبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: (هَكَذَا قال مُجَاهِدٌ وغيره) ومجاهدٌ تلميذ ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حبر هذه الأمة وترجمان قرآنها، وكثيرٌ من أقوال مجاهد هي منقولة عن ابن عبَّاس فقد جاء أنَّ مجاهدًا وقف مع ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على كلِّ آية يسأله عنها، ولذلك كانت تفسير مجاهد في مرتبةٍ متقدمةٍ عند السلف وأئمة المسلمين -رحمة الله على الجميع-.

قال الشَّيخ: (وَهُو تَأْوِيل القُرآن) **أي**: أنَّ خلق النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المقصود بهذه الآية هو تأويل القرآن هو الدين، فأفعال النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي تأويل القرآن، ولذا **قال أهل العلم** رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: «أن أفعال النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حجة لأنَّها في أحايين كثيرة تكون بيانًا لمجملٍ وقد تكون توضيحًا لأمر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه» فأفعال النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأقواله كلُّها تأويلٌ للقرآن وتفسير وتوضيح وبيان لمجملٍ فيه «**أَلَا وَإِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ**».

ثمَّ قال: (كما قالت عائشةُ : «كَانَ خُلُقه القُرْآنُ») **إذن**: **فقول عائشة**: «كَـانَ خُلُقـه القـُرْآنُ» **أي**: أعماله كلُّها، وليس المراد بالأخلاق في تعامل الناس بعضهم دون بعض؛ لأنَّ هذه الأخلاق جزءٌ من أعماله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس نفيًا للمعنى المتبادر للذهن بل إنَّ المعنى المتبادر للذهن هو جزءٌ من **قول عائشة**: «كَانَ خُلُقُه القُرْآنُ» **وقول الله** عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ يجب أن ننتبه لهذا المعنى فإنَّه يدلُّ على معانٍ مذكورة في غير هذا المكان أو لواجب مذكورة في غير هذا المكان.

ثمَّ قال: (وحَقِيقته) **أي**: وحقيقة كمال الخلق الذي امتثله الذي فعله النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأثني عليه به.

قال: (المُبَادرة إلى امتثال ما يُحِبُّه الله تَعَالى بِطِيبِ نَفْسٍ وَانْشِرَاح صَدْرٍ) تعبير المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أجاد فيه لمَّا **قال**: (وحَقِيقته: المُبَادرة إلى امتثال) المبادرة إلى الامتثال؛ لأنَّه أحيانًا قد يمنع من الامتثال مانع طبيعي أو مانعٌ كوني أو أمرٌ آخر من الموانع، لكن المؤمن عندما يبادر للامتثال فإنَّه يتحقَّق له كمال الحصول المقصود، ولذلك جاء في الحديث في الصحيح أنَّ **النبيَّ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ **قال**: «**إِنَّ إِخْوَانًا لَكُمْ فِي الْمَدِينَةِ مَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا وَلَا رَقَيْتُمْ جَبَلًا إِلَّا كَانَ لَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ مَا لَكُمْ حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ**» فهم بادروا للامتثال ولكن لم يستطيعوا الامتثال لأمرٍ من أمور الدنيا العارضة التي تمنع من ذلك، ولذلك أجاد حينما **قال**: (وحَقِيقته: المُبَادرة إلى امتثال) **وقوله**: (إلى امتثال ما يُحِبُّه الله تَعَالى) فعبَّر بمحبة الله عَزَّ وَجَلَّ وهذا الذي يحبُّه الله عَزَّ وَجَلَّ هي المحبة الكونية وهي المحبة الشرعية، فكلُّ ما أحبَّه الله عَزَّ وَجَلَّ محبةً شرعية فإنَّها هي المحبة هي الأمر الشرعي، فإنَّ كلَّ ما يحبه الله عَزَّ وَجَلَّ هو المأمور به

أمرًا شرعيًا، وقد عبَّر المصنِّف **بقوله**: (ما يُحِبُّه الله) لأنَّه تارةً يكون الأمر صريحًا بالدِلالة عليه بدِلالة اللفظ، وتارةً يكون الدِلالة عليه من حيث المعنى فتكون أوامر الشرع دلَّت على المعنى ولم تدل على الفعل وهذا كثير؛ فإنَّ الشَّرع يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فكلُّ ما كان من المعروف والحسن فإنَّ الشَّرع قد أمر به، وكلُّ ما كان من باب الإحسان فإنَّ الشَّرع قد أمر به وإن لم يأمر بعينه، فالأمر تارةً يكون صريحًا وتارةً بالمعنى، ولذلك فرَّق بعض الفقهاء ومنهم الشَّيخ موسى في حواشيه بين دِلالة الكلمتين، بين دِلالة المندوب وبين دِلالة المعنى، بين دِلالة المسنون وبين دِلالة المندوب **فقال**: «إن المسنون ما وردت السنَّة بالأمر به والحث عليه، وأمَّا المندوب فقد تكون الدِلالة عليه بالسنة وقد تكون الدِلالة عليه بالمعاني» وقد تكون الدلالة عليه بالمعاني **مثل**: النظافة مندوب عليها وإن لم يرد أمر بعينه بالفعل المعيَّن الذي يؤدي إلى النظافة وهكذا.

قال: (بِطِيبِ نَفْسٍ وَانْشِرَاحِ صَدْرٍ) هذه مسألة مهمة جداً وهي قضية أنَّ من يقبل على الطاعة له **حالتان**:

- إمَّا أن يجاهد نفسه فيكون له أجران: أجر الطاعة وأجر المجاهدة.
- وإمَّا أن يقبل على الطاعة بانشراح صدر وبإقبال نفس وبفرحٍ بإتيان هذه الطاعة وأجر الثاني أعظم من الأوَّل.

وقد أطال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى في أكثر من موضع في الدِلالة على أنَّ الذي يفعل العبادة ونفسه منشرحةٌ بفعلها، آنسةٌ بالإتيان بها فإنَّ أجره أعظم ممَّن يفعل العبادة مع مجاهدة، الأوَّل الذي يفعل العبادة مع المجاهدة له أجران: أجر المجاهدة وأجر العبادة،

والثاني أعظم باعتبار أنَّ الحسنات تختلف، نعم والثاني أعظم باعتبار ما وقر في قلبه فتعظم الحسنة بما وقع في قلبه، وهذا متقرر عند أهل العلم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَى ومن ذلك ما قاله **عبد الله بن مبارك**: «جاهدت نفسي في قيام الليل عشرين سنة فارتاحت عشرين سنة» وفي **قول الله** عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧] جاء في معنى حياة طيبة أكثر من توجيه ومعناها متقارب من هذه التوجيهات أنَّ الحياة الطيبة هي الالتذاذ بالطاعة، فيأنس بالطاعة ويقبل عليها وتنشرح نفسه بفعلها، ويجد من الأنس بالله والعمل بطاعته علمًا وتعلمًا وصلاةً وتهجدًا وصيامًا ما لا يجده غيره في ملاذ الدنيا، فهذا رجل جمع الله له لذة الدنيا بعمل الطاعة فتكون في لذته العمل الذي يتلذذ به رفعةً عند الله عَزَّوَجَلَّ ومنزلةً وهذه درجة عظيمة هي معنى **قول الله** عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ «والقرآن حمَّال أوجه» كما قال أبو الدرداء، فمن الأوجه ما ناسب مقامنا أنَّ الحياة الطيبة لمن استمر على العمل الصالح مع الإيمان والتوحيد والإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ أنَّ الله يحييه حياةً طيِّبةً في طاعته فيلتذ ويرتبط بالطاعة بعد الارتياض، وكم ألَّف العلماء كتبًا مفردة، فألَّف بعضهم في رياضة النفوس **مثل**: ابن السني، وألَّف بعضهم في رياضة الأبدان **مثل**: أبي نعيم الأصبهاني وغيرهم ممَّا يدلُّ على المعنى الذي ذكرته.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَأَمَّا بَيَان أَنَّ هَذَا كُلَّه فِي وَصِيَّة الله: فهو أَنَّ اسْم (تَقْوَى الله) يَجْمَع فِعْلَ كُلِّ مَا أَمَرَ الله بِه إِيجَابًا وَاسْتِحْبَابًا، وَمَا نَهَى عَنْه تَحْرِيمًا وَتَنْزِيهًا. وَهَذَا يَجْمَع حُقُوقَ اللهِ وَحُقوقَ العِبادِ).

يقول الشَّيخ، رجع لكلامه الأوَّل فأراد أن **يقول**: والدِلالة على أنَّ هذه الثلاث التي جاءت في حديث النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ووصيته لمعاذ داخلةٌ في الكلمة الجامعة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وهي الأمر بتقوى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال: (وَأَمَّا بَيَان أَنَّ هَذَا كُلَّه) وهي الأمور الثلاثة التي جاءت في حديث معاذ في وصية له التي في القرآن وهي الأمر بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، (فهو أَنَّ اسْم (تَقْوَى الله) يَجْمَع فِعْلَ كُلِّ مَا أَمَرَ الله بِه إِيجَابًا وَاسْتِحْبَابًا، وَمَا نَهَى عَنْه تَحْرِيمًا وَتَنْزِيهًا).

قال: ومن فعل ذلك فقد شمل ذلك (حُقُوقَ اللهِ وَحُقوقَ العِبادِ) فكلُّ الأخلاق الحسنة وكلُّ اجتنابٍ للسيِّئات وفعل الحسنات وكلُّ مكارم الأخلاق هي من التقوى بهذا المعنى، ولذا عندما يجتمع اثنان بكلمة "اتق الله" يفترق الأوَّل العالم بالله وبشرعه مع الثاني الذي يسمع هذه الكلمة ولا يعرف كمال معناها، ويفترق الأوَّل الذي ارتاضت نفسه في الطاعة فيفتح الله عَزَّوَجَلَّ عليه في فهمها ما لا يفتح الله عَزَّوَجَلَّ على الثاني فيها، وهكذا من الأمور التي تكون يفترق الناس في الفهم ويتبع الفهم العمل.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (لَكِنْ لَمَّا كَان تَارَةً يَعْنِي بـ (التَّقْوى) خَشْيةَ العَذَابِ المُقْتَضِيةِ للانْكِفَاف عن المَحَارِمِ = جَاء مُفَسَّرًا في حديث مُعاذٍ، وَكَذلك في حديث أبي هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا الَّذي رواه التِّرمذيُّ وَصَحَّحه: قيلَ: يا رسول الله؛ مَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ؟ قَال: «**تَقْوَى اللهِ، وَحُسْنُ الخُلُقِ**»، قِيل: وَمَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ؟ قال: «**الأَجْوَفَانِ: الفَمُ، وَالفَرْجُ**»).

في هذه الجملة بيَّن الشَّيخ رَحِمَهُٱللَّهُ تَعَالَى أنَّه قد يتبادر لبعض الناس أنَّ المراد بالتقوى هو خشية العذاب، وهذا حتَّى موجود في لساننا إذا أردت أن تخوِّف شخص تقول له: اتق الله،

فتقيم التقوى والأمر بها مقام التخويف، وهذا لذلك **قال الشَّيخ**: (لَكِنْ لَمَّا كَانَ تَارَةً يَعْنِي بِـ (التَّقْوى) خَشْيةَ العَذَابِ المُقْتَضِيةِ للانْكِفَاف عن المَحَارِمِ) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة:٢٠٦]، فتستخدم التقوى أحيانًا من باب التخويف من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ وسخطه، وما رتبه الله عَزَّوَجَلَّ من جزاءٍ على فعلٍ محرمٍ لمَّا كان هذا الإطلاق وهو من باب إطلاق الخاص على المعنى العام في التقوى.

قال: (جَاء مُفَسَّرًا في حديث مُعاذٍ) المتقدِّم ففيه حثٌ على أوامر «وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ» فهو أمرٌ بفعل الحسنة، وفعلٌ بمخالطة الناس ومخالطتهم بالخلق الحسن، فأكَّد على أمرين من باب التأكيد على ما قد يظن أنَّه ليس داخلًا في مضمون التقوى.

قال: (وَكَذلك في حديث أبي هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الَّذي رواه التِّرمذيُّ وَصَحَّحه: قيلَ: يا رسول الله؛ مَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ؟ قَال: «تَقْوَى اللهِ، وَحُسْنُ الخُلُقِ») **فقوله**: «وَحُسْنُ الخُلُقِ» الآن ليس من باب المغايرة وإنَّما من باب عطف الخاص على العام، فحسن الخلق هو من التقوى، لكن لمَّا ظنَّ أنَّ التقوى هو الانكفاف عن المحرَّم وعن الزواجر فحسب أكَّد النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على حسن الخلق من باب التأكيد.

قال: (قِيل: وَمَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ؟ قال: «الأَجْوَفَانِ: الفَمُ، وَالفَرْجُ».) لأنَّ أغلب الشهوات متعلِّقةٌ بهذين الأمرين: شهوة الحديث وشهوة الفرج، وأغلب الشبهات إنَّما يعظم الإثم بها عند التكلم بها فإذا تكلم المرء بالشبهة فإنَّه حينئذٍ يكون سببًا لشرٍ، ووجه ذلك «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جَاءَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ فَقَالُوا: إِنَّ أَحَدَنَا يَوَدُّ لَوْ أَنَّهُ هَوَى مِنْ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِمَا فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ذَلِكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ» ليس

المراد به ما في نفسه وإنَّما صريح الإيمان امتناعه وخوفه من الله عَزَّوَجَلَّ من الكلام به.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَفِي «الصَّحيح» عَن عَبدِ الله بن عُمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَكْمَلُ المُؤْمِنِينَ إِيمَانًا: أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**»؛ فَجَعَل كَمَالَ الإيمان في كَمَالِ حُسْن الخُلُق. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الإيمانَ كُلَّه تَقوى الله. وَتَفصيلُ أُصولِ التَّقْوى وَفُرُوعِها لَا يَحْتَمِلُه هذا المَوْضعُ؛ فَإِنَّها الدِّين كُلُّه).

قول الشَّيخ: (وَفِي «**الصَّحيح**») **يعني**: عبد الله بن عمر أنَّ النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**أَكْمَلُ المُؤْمِنِينَ إِيمَانًا: أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**»، **قال**: (فَجَعَل كَمَالَ الإيمان في كَمَالِ حُسْن الخُلُق) حسن الخلق ليس هو الإيمان، وإنَّما كمال الإيمان من صفاته اللازمة له حسن الخلق، وذلك أنَّ الخلق من العمل الصالح، والعمل الصالح من الإيمان فيكمل إيمان المرء بحسن خلقه، ولذا كان أكمل الناس إيمانًا محمَّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وكان أحسن الناس خلقًا وأكرمهم تعاملًا ولا خلق أحسن من خلقه - صلوات الله وسلامه عليه - ولذا فإنَّ أهل العلم ألفوا كتبًا مفردة في أخلاقه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، فأبو الشَّيخ الأصبهاني ألَّف «أخلاق النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ» وعشرات ألفوا في شمائله ويعنون بشمائله في الأصل أخلاقه، ويتبعون ذلك في ذكر شمائله لباسه وصفته الشكلية.

ثمَّ ذكر **الشَّيخ قال**: (وَمَعْلُومٌ أَنَّ الإيمانَ كُلَّه تَقْوى الله عَزَّوَجَلَّ) وشمول التقوى وتفصيل أصول التقوى وفروعها لا يحتمله هذا الموضع.

يقول: (والتفصيل) في هذا الموضوع فيما يتعلَّق بالتقوى وما فيه على سبيل التفصيل لا يمكن الإشارة إليه، وإنَّما يعرف بالعلم ومعرفة كلام أهل العلم في الفقه وفي الآداب، ولذلك

يقول: لابدَّ من معرفة الفقه والآداب معًا، ويفيدون للآداب كتبًا وللفقه كتبًا، وقد **قال بعض السلف**: «كانوا يتعلمون الأدب قبل تعلمهم الفقه» أو «قبل تعلمهم الحديث» والحديث يطلق على الفقه والعكس، والأدب تعلمه ومعرفته مهم، وقد يأتي إشارة له بعد ذلك إن شاء الله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لَكِن يَنْبُوعُ الخَيْرِ وَأَصْلُه: إِخْلَاصُ العَبْد لِرَبِّه عِبَادَةً وَاسْتِعَانَةً؛ كما فِي قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة]، وفِي قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[هود:١٢٣]، وفِي قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[الشُّورى:١٠]، وفِي قوله: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [العنكبوت:١٧]؛ بِحَيْث يَقْطَع العَبْدُ تَعَلُّقَ قَلْبِه مِنَ المَخْلُوقين انْتِفَاعًا بِهِم أَوْ عَمَلًا لِأَجْلهم، وَيَجْعل هِمَّتَه رَبَّه تَعَالى؛ وَذِلَك بِمُلَازَمة الدُّعَاء لَه فِي كُلِّ مَطْلُوبٍ؛ مِن فَاقَةٍ، وَحَاجَةٍ، وَمَخَافَةٍ، وغير ذلك، وَالعَمَلِ لَه بِكُلِّ مَحْبوبٍ).

ذكر **الشَّيخ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى كلمةً جميلةً **قال**: (لَكِن يَنْبُوعُ الخَيْرِ وَأَصْلُه) ينبوع الخير في الأعمال وفي الاعتقاد وفي الأقوال هو إخلاص العبد لله عَزَّوَجَلَّ، وكلُّ أمر هو متفرعٌ عن الإخلاص له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولذلك يحتاج المرء دائمًا أن يعتني بهذا الباب وهو الإخلاص له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن يراجع نفسه فيه ترَّات وكرَّات، كما **قال الحسن البصري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى: «ما أمن الرياء إلَّا منافق، ولا خافه إلَّا مؤمن» وقال عمَّن يذكِّر بالإخلاص والتخويف من ضده وهو الشرك والرياء **قال**: «لأن تجلس مع أقوامٍ يخوفونك حتَّى تأمن خيرٌ من أن تجلس مع أقوامٍ يؤمنونك حتَّى تخاف».

إنَّ الحديث أيُّها الأفاضل عن إخلاص العبادة لله عَزَّوَجَلَّ أمرٌ مهم؛ لأنَّ الإخلاص هو لا

إله إلَّا الله، فمن عرف معنى لا إله إلَّا الله مخلصًا بذلك قلبه فهو المخلص حقيقةً لله عَزَّوَجَلَّ، الإخلاص ألا تعبد إلَّا الله أن تفرد الله عَزَّوَجَلَّ بأفعاله وبأفعال العباد وبأسمائه وصفاته، الإخلاص ألَّا تشرك مع الله عَزَّوَجَلَّ أحدًا في هذه الأمور كلِّها، ومن أفعال العباد أفعال الجوارح فلا يصرف شيءٌ من العبادات لغير الله، ومن أفعال العباد أفعال القلوب وهو الذي أشار إليه المصنِّف، فإنَّ القلوب لها اعتقاد ولها فعل، **قيل**: «ولها كلامٌ» أشار إليه بعضهم، ومن الذين فرَّقوا بين الاعتقاد والفعل الجُنيْد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى، وكان الجُنيْد على طريقة الأوزاعي في الفقه، فمن أفعال القلوب التوكل والاستعانة والاستغاثة وغير ذلك من المعاني التي سيشير إليها المصنِّف، فكلَّما كان المرء أكمل في إخلاص أفعال القلوب لله عَزَّوَجَلَّ كلَّما كان أكمل تقوى وإنابة له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والناس يعنون بأفعال الجوارح وهي حسنة وكم ظلَّ فيها أقوام فصرفوا عبادات لغير الله، ولكن من بعض الخاصة من يغفل عن العناية بأفعال القلوب؛ وإنَّ لأفعال القلوب شأنًا عظيمًا، فهل راجع المرء قلبه في توكله؟ وهل راجع المرء قلبه في استعانته؟ وهل راجع المرء فعل قلبه؟ في حسن ظنه بالله عَزَّوَجَلَّ وانقطاع الظن بما سواه؟ هذه الأمور المهمة يجب على المؤمن أن يراجع هذا الأمر، وسيأتي معنا بعد قليل أنَّ أقوى ما يقوي أفعال القلوب هو ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، والله ما قوَّى شيءٌ أفعال القلوب من الإنابة له والتوكل عليه والاستعانة به وغير ذلك من الأفعال الكثيرة التي فصَّل كثيراً من أنواعها ومدارجها العلَّامة ابن القيِّم في «**المدارج**» إلَّا ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وسيأتي في كلام الشَّيخ ما يدلُّ على ذلك.

لذلك يقول الشَّيخ: (لَكِن يَنْبُوعُ الخَيْرِ وَأَصْلُه: إِخْلَاصُ العَبْدِ لِرَبِّه عِبَادَةً وَاسْتِعَانَةً)

وتوكلًا وتضرعًا وغير ذلك (كما فِي قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة]) فبدأ الله عَزَّوَجَلَّ بالمعمول قبل العامل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ **قال أهل البيان والبلاغة**: «وتقديم المعمول على العامل يدلُّ على الحصر والقصد» فأمَّا الحصر فإنَّه يدلُّ على أنَّه لا يجوز صرف أي من العبادة وأي من الاستعانة بغير الله عَزَّوَجَلَّ، وأمَّا القصد فيدلُّ على أنَّه يجب أن تقصد بكليتك الله عَزَّوَجَلَّ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فلا تكون العبادة مقصودة إلَّا له سبحانه.

قال: (وفِي قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣]) فدلَّ على أنَّ التوكل من عبادة الله عَزَّوَجَلَّ بل هو من آكدها، ولذلك قرَّر بعض أهل العلم ومنهم ابن القيِّم على أنَّ التوكل عبادة محضة فلا يجوز صرفها لغير الله فلا يصحُّ أن تقول: أتوكل على الله ثمَّ عليك، لأنَّ التَّوكل فعل قلبٍ ولا يكون إلَّا لله عَزَّوَجَلَّ وممَّا استدلَّ به هذه الآية: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ **أي**: فاصرف العبادة كلها لله، واجعل التوكل كلَّه له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهو العبادة.

قال: (وفِي قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشُّورى:١٠]) وعليه مثل ما تَقَدَّمَ تقديم المعمول على العامل فدلَّ على الحَصر، فلا يُصرف التَّوكل إلَّا لله عَزَّوَجَلَّ، فلا تتوكل إلَّا على الله، والتَّوكل هو فعل القلب، فلا تعتمد بقلبك إلَّا على الله لا على طبيب، ولا على مدير ولا على أبٍ ولَا على غير أستاذ ولا على غيره، توكل على الله عَزَّوَجَلَّ، إنَّما أولئك أقوامٌ يكونون طرائق لتحقيق الهدف الذي تريده.

قال: (﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾) كذلك الإنابة إنَّما تكون له سبحانه.

قال: (وفِي قوله: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [العنكبوت:١٧]) فلا يعبد إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ وحده لأجل الرِّزق.

ثمَّ قال الشَّيخ: (بِحَيْث يَقْطَع العَبْدُ تَعَلُّقَ قَلْبِه مِنَ المَخْلُوقين انْتِفَاعًا بِهِم أوْ عَمَلًا لِأَجْلهم) وهذا يدلُّنا على أنَّ القلب إذا انقطع من التعلُّق بالمخلوقين وتعلَّق بالله عَزَّوَجَلَّ، فإنَّه إنَّما تكون أعماله كلُّها لله عَزَّوَجَلَّ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢] لا شريك له، فتكون أعمالك كلُّها لله، هذا كمال التَّقوى، ولكنَّ النَّاس يتفاوتون في ذلك تفاوتًا بيِّنًا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَيَجْعل هِمَّتَه رَبَّه تَعَالى. وَذِلَك بِمُلَازَمة الدُّعَاء لَه فِي كُلِّ مَطْلُوبٍ؛ مِن فَاقَةٍ، وَحَاجَةٍ، وَمَخَافَةٍ، وغير ذلك، وَالعَمَلِ لَه بِكُلِّ مَحْبوبٍ).

ذكر الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى أنَّ أكثر ما يقوي تعلُّق القلب بالله عَزَّوَجَلَّ أمران، وانتبه لهذين الأمرين، فقد أَلحَظَ إليهما الشَّيخ في كلامه،

۞ الأمر الأوَّل: الدُّعاء؛ وما نفع عبدٌ في قلبه تعلُّقًا بالله عَزَّوَجَلَّ مثل: الدُّعاء، لأنَّك عندما تدعو الله عَزَّوَجَلَّ لا يسمع دعاؤك إلَّا هو سبحانه، ولا يعلم به إلَّا هو جَلَّ وَعَلَا، فحينئذٍ تعلم أنَّك إنَّما تلقي حاجتك به، وإنَّما تناجيه سبحانه، وخاصَّةً عندما تكون في سجود أو تكون في ظلمة ليل، وقد انقطع الرَّجاء من الدُّنيا وأهلها، ولم يتَّصل إلَّا به سبحانه، ولذلك ما قوَّى إيمان شخص شيءٌ أعظمَ من الدُّعاء، وقد جاء عند التِّرمذيّ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ»، فهو العبادة وهو أقوى ما يقوِّي علاقة العبد بربِّه، ولذلك قال: (بِمُلَازَمة الدُّعَاء لَه – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – فِي كُلِّ مَطْلُوبٍ؛ مِن فَاقَةٍ، وَحَاجَةٍ) أيُّ حاجة تحتاجها أكثر من دعاء الله عَزَّوَجَلَّ، وإنَّ أحدهم ليسأل الله عَزَّوَجَلَّ إذا انقطع شسع نعله من الصَّحابة – رضوان الله عليهم – كلُّ أمرٍ ينزل بك فاسأل الله عَزَّوَجَلَّ، إذا نزلت بك حاجة اسألها الله عَزَّوَجَلَّ، إذا

تأمَّلت أملًا أو تأمَّلت رجاءً في مستقبلك، فاسأل الله عَزَّوَجَلَّ، إذا خِفت أحدًا فاسأل الله عَزَّوَجَلَّ، إذا تردَّدت في أمرٍ فالجأ إلى الله بالدُّعاء بالاستخارة، ليختار لك الأصلح، عليك بالدُّعاء، **عُمَر** ماذا يقول رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؟ **يقول**: «إنِّي لا أحمل همَّ الاستجابة – أو نحو ممَّا قال – ولكن همَّ الدُّعاء» فذات الدُّعاء همٌّ لا يستطيعه كلُّ امرئٍ، ليس كلُّ امرئٍ يفتح عليه في باب الدعاء، وقد نقل **ابن مفلح** في «**الآداب**» **عن بعض الصالحين أنَّه يقول**: «أنَّه كانت تنزل بيَ الحاجة، فأكثِر من دعاء الله عَزَّوَجَلَّ، فأتمنَّى ألَّا ترتفع تلك الحاجة لما أجد في قلبي من الإقبال والتعلُّق بالله عَزَّوَجَلَّ» فما يعطيك الله عَزَّوَجَلَّ حين الدُّعاء والإخلاص فيه والتضرع من السَّعادة والحياة الطيِّبة وانشراح الصَّدر ربَّما يكون أعظم من الطَّلب الَّذي تطلبه، هذا الأمر الأوَّل.

❁ **الأمر الثَّاني قال**: (وَالعَمَلِ لَه بِكُلِّ مَحْبوبٍ) **أي**: لله عَزَّوَجَلَّ، وهذه الفرق بين أهل السنَّة العالِمين بالله وبشرعه، وبين من يدَّعي محبَّة الله عَزَّوَجَلَّ ممَّن خالف طريقتهم من أهل الجهالة، إنَّ بعض الناس يدَّعي أنَّ مجرَّدَ محبَّته لله عَزَّوَجَلَّ كافيةً في نيلهِ الدَّرجاتِ العالية، ومَنْصبَ الولاية والفوز بالجنَّة، والتقدُّم على الآخرين، ليس ذلك كذلك، إنَّما العبرة والمحكُّ الامتثال لأمر الله عَزَّوَجَلَّ وأمر رسوله ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران:٣١]، **وفي الحديث القدسي**: «**مَنْ عَادَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا زَالَ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا**»، فبيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أنَّه ما تقرَّب إليه عبده بشيء أحبَّ إليه ممَّا افترَض عليه، وما زال يتقرَّبُ إليه بالنَّوافل حتَّى يحبَّه.

المقصود: أنَّ من المعايير المهمَّة التي تجعل القلب متعلِّقًا بالله عَزَّوَجَلَّ الإكثار من فعل

محبوب الله عَزَّوَجَلَّ صلاة، قيام، علم، تعلُّم، تعليم، صدقة، حجّ، قصد بيت الله عَزَّوَجَلَّ، الإحسان إلى النّاس بالمال وبالخلق، البدن «**كُلُّ سُلَامَةٍ عَلَى ابْنِ آدَمَ صَدَقَةٌ**» وغير ذلك من الأمور الفاضلة، ولا يحسن ويعرف محبوب الله عَزَّوَجَلَّ إلَّا من تعلَّم شرعه.

قال: (وَمَنْ أَحْكَمَ هَذا فَلَا يُمْكِن أَنْ يُوصَفَ مَا يُعْقِبُه ذلك).

يقول: من عرف هذين **الأمرين**: الدُّعاء والإتيان بمحبوب الله عَزَّوَجَلَّ وامتثله فلا يمكن، انظر مهما تكلَّم المتكلِّم، مهما قال الخطيب وأطنب، ومهما تكلَّم الواعظ وأسهب فوالله لا يمكن وأقولها حقيقةً بما أخبر به أولئك، لا يمكن أن تصف ماذا سينعم الله عَزَّوَجَلَّ على العبد من حلاوة الإيمان، وماذا سينعم الله عَزَّوَجَلَّ على العبد من التعلُّق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصدق الإيمان والتوكل والاستعانة عليه جَلَّ وَعَلَا، الزم **الأمرين**: الدُّعاء، والأمر الثاني: الزم فعل محبوب الله عَزَّوَجَلَّ، الزم هذين الأمرين تفلح في الدنيا والآخرة.

قال: (وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنه مِن أَفْضَل الأَعْمال بَعد الفَرَائض).

هذه الجملة التي أوردَها المصنِّف هي الجواب للسؤال الثاني وهي الوصيّة الثّانية، وهي أفضل الأعمال، وعبَّر المصنِّف بأنَّها بعد الفرائض؛ لأنَّ أفضل ما يعمل هو الفرائض «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَمَا زَالَ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**» فدلَّ على أنَّ أفضل العبادات هي الواجبات، ثمَّ بعدها الأعمال النَّوافل بعضها أفضل من بعضٍ ولا شكَّ، لكن ما أفضلها؟ هذا ما سيتكلَّم عنه المصنِّف.

قال: (فَإِنَّه يَخْتَلِف بِاخْتِلَاف النَّاسِ فِيما يَقْدِرُون عَلَيْه وَمَا يُنَاسِب أَوْقَاتِهم).

طبعًا العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ لهم مسلكان:

۞ من أهل العلم من يرى أنَّ هناك أعمالًا فاضلةً على سبيل الإطلاق.

۞ ومنهم وهو الذي ينصره المصنِّف وكثيرٌ من أهل العلم، أنَّ هذا يختلف باختلاف الأشخاص، وباختلاف الأحوال وباختلاف الأزمان، والفقهاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَى يوردون أفضل الأعمال في **موضعين**: يريدونها في أوَّل باب صلاة التطوُّع من «**كتاب الصَّلاة**»، ويريدونها في أوَّل «**كتاب الجهاد**»، ذكر هذه المسألة في هذين الموضعين الشَّيخ محمَّد بن مفلح في «**الفروع**»، فقد ذكر هذه المسألة في موضعين مختلفين، والمصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى الشَّيخ تقي الدين يرى أنَّ العبَّاد أنَّ النَّوافل لا توجد نافلة أفضل من غيرها على سبيل الإطلاق، وإن كان يرجِّح الذكر كما سيأتي بعد قليل لمعنى.

قال: (فَإِنَّه يَخْتَلِف بِاخْتِلَاف النَّاسِ فِيما يَقْدِرُون عَلَيْه) فمن كان عاجزًا عن عبادة لا نقول أنَّها أفضل في حقِّه، بل إنَّ غيرها من العبادات أفضل في حقِّه، فمن عجز عن الصدقة كيف تكون في حقِّه أفضل؟ من عجز عن الجهاد لعدم وجوده، وقد جاء عن النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أكثر من حديث ما يدلُّ على أنَّه لا يلزم أن يكون موجودا في كلِّ وقت ومع ذلك يؤجر من نواه لكنَّه غيره يكون أفضل في حقِّه منه، ومثله في الصَّدقة، من لم يجد المال، القيام في الصَّلاة لمن كان عاجزًا، برُّ الوالدين لمن كان والداه متوفِّيين، فقد فات محلهما وهكذا.

قال: (فَإِنَّه يَخْتَلِف بِاخْتِلَاف النَّاسِ فِيما يَقْدِرُون عَلَيْه) **قال**: (وَمَا يُنَاسِب أَوْقَاتِهم) **قوله**: (وَمَا يُنَاسِب أَوْقَاتِهم) **يعني**: أنَّ في بعض الأوقات تكون بعض العبادات أفضل، ومن القواعد في ذلك:

- أنَّ العبادة إذا شُرعت في زمانٍ مخصوصٍ فأفضل ما يُشرع في ذلك الزمان تلك العبادة،

عندما نقول يوم الأضحى، أفضل عبادةٍ فيه نحر الأضحية، **ونقول**: إنَّ أفضل ما يُفعل في رمضان صيام رمضان، وأفضل ما يفعل في الحجِّ قصد بيت الله الحرام حاجًّا، وهكذا في الأوقات المُضيَّقة.

- كما أنَّ بعض الأوقات لا تُشرع فيها بعض العبادات، فإنَّ من أفضل الأوقات وقت العصر، ومع ذلك ينهى فيها عن التنفُّل، فقد نُهينا عن الصَّلاة بعد صلاة العصر في أكثر من حديث، ولكن أفضل الأعمال بعد صلاة العصر ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، كما تعلمون ربَّما يأتي الإشارة إليه في فضل الذِّكر بعد صلاة العصر.

الأوقات تختلف والأحوال تختلف، ولذلك **قال**: (فَلَا يُمْكِن فِيه جَوَابٌ جَامِعٌ مُفَصَّلٌ لِكُلِّ أَحدٍ) لا يمكن أن **نقول**: إنَّ كلَّ واحدٍ له هذه القاعدة بل تختلف باختلاف الأحوال، العالِم في حقِّه التَّعليم أفضل، الجاهل التعلُّم في حقِّه أفضل لرفع الجهل، القادر على البذل بالمال وهكذا يختلفون من حالٍ إلى حال، من كان والداه حيَّين فبرُّهما من أفضل العبادات وهكذا، كانا محتاجين أفضل ممَّن لم يكونا محتاج وهكذا.

قال: (لَكِن مِمَّا هو كالإجماع بَيْن العَلماء بالله وَأَمْره: أَنَّ مُلَازَمة ذِكْر الله دَائِمًا هو أَفْضَل مَا شَغَلَ العَبْدُ به نَفْسَه في الجُملة).

يقول: (لَكِن مِمَّا هو كالإجماع) لم يعبِّر المصنِّف بالإجماع لكن يقول: هو شبيهٌ بالإجماع، ووجه **قوله**: (أنَّه كالإجماع) لأنَّه لا يوجد صراحةً هذا الكلام، ولكنَّه مضمون كلامهم، كما سيأتي – إن شاء الله – في توجيه كلامهم.

قال: (لَكِن مِمَّا هو كالإجماع بَيْن العَلماء بالله وَأَمْره) العلماء بالله هم العالمون بأفعال

القلوب، لأنَّ أفعال القلوب هي الدَّالّة على الله، فالعالم بالله هو العالم بأفعال القلوب، والعالم بأسمائه وصفاته؛ لأنَّ من أسباب تقوية الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ التَّفكُّر في أسمائه جَلَّوَعَلَا وصفاته الفعليَّة والذَّاتيَّة.

(وَأَمْرِه) أي: بشرعه، وهذه أجود ممَّن عبَّر بعلماء الظّاهر والباطن من بعض الفرق، بل الصَّواب أن نقول: العلماء بالله وبأمره، فيجمعون بين الأمرين.

قال: (أَنَّ مُلَازَمة ذِكْر الله دَائِمًا هو أَفْضَل مَا شَغَلَ العَبْدُ به نَفْسَه في الجُملة.) فيشغل نفسه بها، **لماذا قلنا**: إنَّها أفضل؟ لأنَّك إذا تأمَّلت كلَّ ما قيل من العبادات أنَّها هي الأفضل فلن تجد عبادةً إلَّا وفيها ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، الصَّلاة فيها ذكر، التقاء الصَّفَّين فيه ذكر، الزَّكاة فيها ذكر، الصَّوم فيه ذكر، الحجُّ فيه ذكر، كلُّ عبادةٍ فاضلة إتيانها بصفة الكمال فيها ذكر، وهذا يدلُّنا على أنَّ أفضل الأعمال في الجملة أي: على سبيل الإجمال هو الذكر، وعبَّر بذلك لأنَّه في بعض الأحيان ينهى عن الذكر **ومثل ذلك**: حال القيام في الصلاة وقراءة الإمام، فقد نهينا عن الذكر وأمرنا بالاستماع والإنصات ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ [الأعراف:٢٠٤]، **قال أحمد**: «أجمع على أنَّها نزلت في الصلاة» أي: حينما يقرأ الإمام في الصلاة الجهرية فيجب الإنصات له ولا ينشغل لا بقراءةٍ ولا ذكر، فقد تكون بعض الصور مستثناة، ولكن لو أردت النظر نظرًا بعيدًا فإنَّها راجعةٌ للذكر، فإنَّها سماعٌ لذكر وهكذا، ولذلك عبَّر المصنِّف (في الجملة) لأنَّها قد تكون هناك استثناءات في بعض الصور.

ثمَّ قال: (وَعَلى ذَلِك دَلَّ حَدِيث أَبِي هُرَيْرَةَ الَّذِي رواه مسلمٌ: «سَبَقَ المُفَرِّدُونَ»، قالوا: يا رسول الله؛ وَمَنْ المُفَرِّدون؟ قال: «الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ»).

هذا الحديث يدلُّ على أنَّ المفرِّدين الذين يذكرون الله عَزَّوَجَلَّ كثيرًا واللَّاتي يذكرن الله عَزَّوَجَلَّ كثيرًا هم السابقون، سبقوا الناس في علوِّ الدَّرجة في الجنَّة وسبقوا الناس في دخول الجنَّة، وسبقوا الناس في أمورٍ كثيرةٍ في يوم الآخرة وفي الدنيا كذلك، وهؤلاء المفرِّدون الذاكرون والذاكرات هم لابدَّ وأن يتلبَّسوا بفعل محبوبات الله عَزَّوَجَلَّ ولا شكَّ، فلابدَّ أن يكونوا قد صلُّوا وصاموا وحجُّوا واعتمروا وغير ذلك من العبادات، وهذه العبادات فيها ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا الحديث دلَّ على **أمرين**:

۞ **الأمر الأوَّل**: أنَّ الذَّاكرين هم السَّابقون، فيكون فعلهم هو الأفضل، وهذه من باب إماطة الحكم بالصِّفة، وهذا من باب الإيماء للعلَّة، فإنَّ ذكر الحكم مقرونًا بصفة إيماءٌ لكون الصِّفة علَّةٌ له، وإلَّا وإن لم تكن تلك الصِّفة علَّةً فإنَّه يكون ذكرها لغوًا، وكلام الشَّارع منزَّه عن اللَّغو فيه، هذا واحد.

۞ **المعنى الثاني**: الذي دلَّ عليه هذا الحديث؛ دلَّ هذا الحديث على أنَّ السَّابقين، من شرطهم أن يكونوا قد أتوا بالواجبات، التي هي العبادات الصالحة، فدلَّ على أنَّ لا تعارض بين كون الذِّكر فاضلًا مع فعل باقي العبادات كما تقدَّم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَفِيما رَواه أَبُو داودَ عن أبي الدَّرْداءِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عَن النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّه قال: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُم مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ، وَمِن أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُم فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟**» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُول الله! قال: «**ذِكْرُ اللهِ**».

وَالدَّلَائِلِ القُرْآنِيَّةُ وَالإِيمَانِيَّةُ – بَصَرًا وَخَبَرًا وَنَظَرًا – عَلَى ذَلِك كَثِيرةٌ).

الحديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيه أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ» قوله: «بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ» أي: أفضلها «وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُم» إلى آخر الحديث، هذا الحديث صريح في فضل الذِّكر، لكنَّ أهل العلم قالوا إنَّ الذِّكر يشمل أمرين:

- الذِّكر الخالص؛ وهو أن يذكر الله عَزَّوَجَلَّ إمَّا ذكر الطَّلب أو ذكر الثَّناء، ذكر الطَّلب: الدُّعاء، دعاء الطَّلب، وذكر الثَّناء: تمجيد الله عَزَّوَجَلَّ، والثَّناء عليه.
- والأمر الثاني: الذِّكر المشروك بغيره من العبادات، فالصَّلاة ذكرٌ، والحجُّ ذكرٌ، فما جُعلت الصَّلاة إلَّا للذِّكر وما جُعِل الحجُّ إلَّا للذِّكر، وما جُعل الوقوف بعرفة والطَّواف بالبيت إلَّا لذكر الله عَزَّوَجَلَّ وإحياء شعائر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثمَّ قال: (وَالدَّلَائِلِ القُرْآنِيَّةُ وَالإِيمَانِيَّةُ – بَصَرًا وَخَبَرًا وَنَظَرًا – عَلى ذَلِك كَثِيرةٌ.) قوله: (وَالدَّلَائِلِ القُرْآنِيَّةُ) يعني: النصوص الشرعية كثيرة، قال: (وَالإِيمَانِيَّةُ) هذه سأقف معها قليلًا، قوله: (الإِيمَانِيَّةُ) يدلُّنا على أنَّ لأهل الإيمان الذين اجتمع فيهم وصفان، وهنا يجب أن نفرِّق بين معرفة أهل العلم وغيرهم، أهل الإيمان ما اجتمع فيهم وصفان: العلم والعبادة، والذي يجتمع فيه هذان الوصفان، وينال منهما نصيبًا عظيمًا، وييسر الله عَزَّوَجَلَّ عليه فيهما معًا، فإنَّ هذا من أندر الناس، وقلَّما يجتمع في امرئٍ هذان الوصفان، حتَّى قال بعض أهل العلم: «إنَّ من اجتمع فيه العلم والعبادة أنَّه أندر من الكبريت الأحمر» لكون العلم قد يشغل المرء ويعلِّمه الرخص فيبتعد عن العبادة، أو يكون العلم سببًا لكسب حظٍّ من الدنيا، وأمَّا المنشغلون بالعبادة فإنَّ كثيرًا منهم يزهد في العلم، عندما نتكلم عن أهل الإيمان فهم الذين

جمعوا هذين الوصفين، إنَّ من نظرنا في طريقته فيه الوصفان لكن أقلَّ، وكلَّما طال بك الزمن وجدت من اجتمع فيه الوصفان أقلَّ، نعم، قد تجد صاحب عبادة، وقد تجد صاحب علم، لكن لا تجد من يجتمع فيه الوصفان إلَّا أقلّ القليل، إذا وجدت من اجتمع فيه هذان الوصفان فاسأله عمَّا يفتح الله عَزَّوَجَلَّ عليه في أمور أفعال القلوب، وما يجده من الأنس بالله عَزَّوَجَلَّ، هذا الأنس يفتح الله عَزَّوَجَلَّ على بعض العباد في بعض المواضع، عندما تكون في عرفة تنقطع إلى الله عَزَّوَجَلَّ وتفعل بعض العبادات على علمٍ وبصيرة – واعذروني إن خرجت قليلاً – **أقول**: على علمٍ وبصيرة، لأنَّ الجاهل عندما يأتي في عرفة يقوم يصلي ركعات، يقول ما يجوز لأنَّه وقت نهيٍ لأنَّك جمعت الظهر والعصر جمع تقديمٍ، ولا يجوز الصلاة بعد صلاة العصر على أصحِّ قولي أهل العلم لأنَّ الصحيح أنَّها متعلِّقة بالصلاة لا بالوقت، وبعض الناس يسجد فأنا أقول: هذا مخرَّج على الخلاف، هل السجود عبادةٌ مستقلةٌ أم أنَّها صلاةٌ؟ فهل هي صلاةٌ أم ليست صلاة؟ وهكذا من المسائل.

فالمقصود: من دعا الله عَزَّوَجَلَّ على علمٍ وبصيرة، وأتى بالأوراد المشروعة الواردة جوامع الكلم، وتفكَّر في معانيها فإنَّه سيجد في قلبه أنسًا وانشراحًا وإقبالًا ما لا يجده غيره، هنا **قول الشَّيخ**: (وَالدَّلَائِلِ الإِيمَانِيَّةُ) يقصد أهل العلم والإيمان والطاعة الذين أخبروا عن أنفسهم في الذِّكر ماذا وجدوه، منهم الشَّيخ، فقد حكى عنه تلميذه – **أعني**: بالشَّيخ المؤلِّف – فقد حكى عنه تلميذه أنَّه **يقول**: «أنَّه كان في كلِّ غداةٍ وصبح يوم يأتي بأذكار» **ويقول**: «إنَّ هذه الأدعية والأذكار التي أقولها في صبحي وعشيِّي هي زادي، إذا لم أقلها فإنِّي أجد في جسدي ضعفًا ووهنًا» وهذا من أخبار أهل الإيمان الذي قصده الشَّيخ.

إذن: أنا وقفت مع هذه الكلمة لكي نفهمها، ليس كلَّ ما نجده في الأخبار عن الأوائل صحيح، فإنَّ بعض ما يوجد في الكتب فيما عُني بطبقات الصُّوفية لأبي ابن عبد الرحمن السلمي، وبعض ما ذكره أبو نعيم في «**حلية الأولياء**» فيه من أناسٍ أهل عبادةٍ ولكنَّهم ليسوا أهل علم، أنظر لأهل العلم والعبادة معًا خاصةً من الصَّحابة وتابعيهم وتابعي تابعيهم ومن سار على طريقتهم، هؤلاء هم الذين أنظر لطريقتهم فيما يخبرون به في هذه الأمور، وهذا هو المراد فهذا ملحظ يجب أن ننتبه له، طبعًا وبعضهم يقلُّ وبعضهم يزيد، ذكرت لكم الجنيد، الجنيد كان من أهل العلم وكان فقيهًا على مذهب الأوزاعي ويفتي به، فكثيرٌ ممَّا يذكره من الأحوال والأخبار هي على طريقة أهل السنّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى، طبعًا الخبر الوارد والنظر هو الاستدلال بالمعاني.

قال: (وَأَقَلُّ ذَلِكَ: أَنْ يُلَازِمَ العَبْدُ الأَذْكَارَ المَأْثُورةَ عَن مُعَلِّمِ الخَيْرِ وَإِمَامِ المُتَّقِينَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

قوله: (وَأَقَلُّ ذَلِك) **أي**: وأقلُّ الذِّكر المندوب؛ لأنَّ الذكر منه ما هو واجبٌ الذي يكون في الصَّلاة ومنه ما هو مندوب، أقل ذكرٍ مندوبٍ يفعله المسلم، من نقص عنه فإنَّه مكروهٌ على طالب العلم خاصة أن يتركه. **قال**: (أَنْ يُلَازِمَ العَبْدُ الأَذْكَارَ المَأْثُورةَ عَن مُعَلِّمِ الخَيْرِ) الأذكار الواردة، وقد جمعها جماعة كما سيأتي بعد قليل، (عَن مُعَلِّمِ الخَيْرِ وَإِمَامِ المُتَّقِين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. كالأَذْكار المُؤَقَّتَة في أَوَّل النَّهَار وآخِرِه).

قوله: (كالأَذْكار المُؤَقَّتَة في أَوَّل النَّهَار وآخِرِه) عبَّر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى بأوَّل النهار وآخره هو الذي يعبِّر عنه بعض أهل العلم بأنَّه طرفي النهار، وأخذوا ذلك من **قول الله** عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩] فأمر الله عَزَّوَجَلَّ بالتسبيح في أوَّل النهار قبل طلوع الشمس وقبل الغروب وهو آخر النهار، فيكون الأصل فيهما، فإن قلت إنَّه قد جاء أنَّ في **الأحاديث**: «بِكَ أَصْبَحْتُ» **وبحديث**: «اللَّهُمَّ بِكَ أَمْسَيْتُ» وهكذا من الإمساء، فكيف يكون المساء في آخر النهار، **نقول**: إنَّ قاعدة لسان العرب أنَّ كلَّ ما كان بعد الزوال **أي**: بعد أذان الظهر يسمَّى مساء، **قال الإمام أحمد**: «إنَّ أهل الحجاز يقولون بعد زوال الشمس كيف أمسيت؟ وقبل زوالها كيف أصبحت؟» وما زلنا إلى وقتنا هذا إذا أردت أن تقول لشخصٍ بعد الظهر ما تقول له كيف أصبحت، إنَّما تقول له كيف أمسيت؟ ما زال هذا عُرفنا ونتوارثه من لسان العرب **يعني**: كبار السن عندنا، وهذا هو لسان العرب، فكلُّ ما كان بعد زوال الشمس **أي**: بعد الظهر يسمَّى مساءً، فحينئذٍ يكون ذكر المساء داخلٌ فيما بعد الزوال، وعليه حمل فقهاؤنا الحديث الذي ورد **عند أهل السنن**: «رَمَيْتُ بَعْدَ مَا أَمْسَيْتُ» **أي**: بعد الزوال، فيكون الرمي هنا يوم العيد بعد الزوال.

إذن: هذا ما يتعلَّق **بقول المصنِّف**: (أَوَّل النَّهَار وآخِرِه) وآخر النهار، وهنا مسألة أشير لها إشارةً، معلومٌ أنَّ الذكر يكون عند الإمساء وعند الإصباح، وقد جاء فيه أحاديث تبلغ عشرة أو تزيد قليلًا، جمعها النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى، ثمَّ إنَّ الشَّيخ عبد العزيز بن باز – عليه رحمة الله – انتقى من أحاديث التي أوردها النووي الأحاديث الصحيحة فقط وأخرجها في جزء، فجمع فيها أحاديث الصباح والمساء دون ما عداها، وسمَّاها «**تحفة الأخيار**»، هذه الأحاديث فرَّق بين المساء والصباح، فما هو وقت الذكر الذي تقال فيه عند الصباح وما هو الذي يكون عند المساء؟ فيه أقوالٌ متعدِّدة ذكرها ابن الجزري في كتابه وتبعه على ذكرها الشوكاني في

«**التحفة**» كذلك، وابن علَّان في شرحه لأذكار النووي، فأوردها إيرادًا أو أورد بعض هذه الأقوال على سبيل الإيجاز، أمَّا أذكار الصباح فقد **قيل**: في ابتداء وقتها قولان؛ **قيل**: إنَّ ابتداء وقتها يبدأ من طلوع الفجر **أي**: أذان الفجر الثاني، وهو الفجر الصادق، وهو الذي عليه أكثر أهل العلم، **وقيل**: إنَّ ابتداء وقتها يبدأ من طلوع الشمس، وهو الذي جزم به ابن القيِّم في الوابل، وفُهِم من كلام الشَّيخ تقي الدين، وسبب هذا الفهم من كلام الشَّيخ تقي الدين أنَّ في المذهب قولٌ في ابتداء النهار، هل ابتداؤه من طلوع الفجر أم أنَّ ابتداءه من طلوع الشمس؟ وينبني على هذا الاختلاف أحكام فقهية منها: الوقوف بعرفة، وبناءً على ذلك فإنَّ الشَّيخ ينتصر **يعني**: بالشَّيخ الشَّيخ تقي الدين، فإنَّ الشَّيخ ينتصر إلى أنَّ ابتداء النهار يبدأ من طلوع الشمس، ففُهِم من ذلك أنَّ أذكار الصباح تبدأ من طلوع الشمس وفيه نظر؛ لأنَّ **الشَّيخ تقي الدين يقول**: «إنَّ الليل ينتهي بطلوع الفجر، والصباح والنهار يَبتدأ بطلوع الشمس، والفترة التي تكون بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس برزخٌ، فهو حدٌّ بين الليل والنهار» يلحق بالليل أحيانًا ويلحق بالنهار أحيانًا، وعلى ذلك فإنَّ نسبة هذا القول للشَّيخ تقي الدين فيه نظر، والأقرب أن نقول وهو ظاهر القرآن أنَّه قبل طلوع الشمس، قبل طلوع الشمس فدلَّ على أنَّ نسبة هذا القول إليه كما فهمه جماعة فيه نظر، والصواب أنَّ ابتداءها يبدأ من طلوع الفجر، هذا واحد.

- أمَّا انتهاء أذكار النهار **فقيل**: إلى الزوال، **وقيل**: إلى طلوع الشمس، **وقيل**: بالزّوال لماذا؟ لأنَّ ما بعد الزوال يسمَّى إمساء، وأذكار المساء **قيل**: تبدأ من زوال الشمس **أي**: من أذان الظهر، **وقيل**: من بعد **وقيل**: من حين أن تتريض الشمس للغروب، **وقيل**: من غروب

الشمس، **وعلى العموم**: فإنَّ هذه الأقوال اجتهادية، ولذلك فالذي يرجِّحه الشَّيخ عبد العزيز بن باز – عليه رحمة الله – أنَّ كلَّ هذا جائز، وأنت ادعُ بما شئت، ولكن ما أمكنك أن تقف عند الآية أن تسبح الله عَزَّوَجَلَّ قبل طلوع الشمس وقبل غروب الشمس فإنَّه أولى، وهذه القبلية لا حدَّ لها من بدء الإمساء وهو غروب الشمس، وهو زوال الشمس ومن حين طلوع الشمس.

قال: (وَعِنْد أَخذ المَضْجَع).

فيها أدعية كثيرة منها: ما في «**الصحيحين**» أنَّ **النبيَّ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **كان يدعو**: «**اللَّهُمَّ بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا**» **وحديث البراء المشهور**: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا**» عند الاستيقاظ كان **النبيُّ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **يقول**: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَمَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورِ**» «**اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ**» الأدعية المعروفة.

قال: (وَعِنْد الاسْتِيقَاظ من المَنَام، وَأَدْبَار الصَّلَوات).

المراد بأدبار الصّلوات **نوعان**: قبل السَّلام وبعده، أمَّا قبل السَّلام فقد جاء فيه **الحديث**: «**ثُمَّ لِيَتَخَيَّرَ مِنَ الدُّعَاءِ مَا شَاءَ**»، وأمَّا بعده فقد قرَّر جماعة من أهل العلم ومنهم ابن القيِّم أنَّ دعاء الطلب – أنظر معي نتكلَّم عن دعاء الطلبِ وليس الذِّكر – أنَّ دعاء الطلب لا يُشرع دُبر صلوات الفريضة مباشرةً؛ لأنَّ المشروع دُبر صلوات الفريضة الانشغال بما ورد، بما ثبت في **حديث الثّوبان وغيره**: «**أَسْتَغْفِرُ اللهَ ثَلَاثًا اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ**» إلى آخره ثمَّ إذا انقضى من هذا الذِّكر الوارد له أن يدعو دعاء طلبٍ وإن شاء رفع يده، وهل الأفضل الدعاء قبل السَّلام أم

بعده؟ مع الحكم بأفضلية الذكر دُبر الصلوات، **نقول**: الأفضل أن يكون قبل السَّلام بشرط أن يكون من جوامع الكلِم، يحرص على أن يكون من جوامع الكلِم، يكون ليس فيه ملاذٌّ الدنيا قدر المستطاع.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَالأَذْكَار المُقَيَّدة؛ مِثْل: مَا يُقَال عِنْد الأَكْل، والشُّرْب، واللِّبَاس، والجِمَاع، وَدُخُول المَنْزل والمَسْجِد والخَلاء، والخُرُوج مِن ذَلك، وَعِنْد المَطَرِ والرَّعْد إلى غير ذلك.

وَقَدْ صُنِّفَت لَه الكُتُب المُسَمَّاة بِـ «**عَمَل اليَوْم وَاللَّيْلة**»).

هذه كتبٌ كثيرةٌ جدًّا أُلِّفت فيه، من أوَّل من كتب في ذلك الإمام أبو عبد الرحمن النسائي المتوفى سنة ثلاث مئة وثلاثة، صاحب «**كتاب السنن**» فإنَّه عقد كتابة في السنن الكبرى وأفرد بعد ذلك، وربَّما كان هو الذي أفرده باسم كتاب «**عمل اليوم والليلة**»، ثمَّ إنَّ تلميذه راوي السنن الصغرى عنه المسمَّى بالمجتبى وهو ابن السُّنِّي المتوفي بعده أو المتوفَّى بعده بستِّين سنة فقد توفي ابن السُّنِّي سنة ثلاث مئة وأربعة وستّين أو واحد وستين سنة، بعده بواحد وستين سنَّة ألَّف كتابًا هو أجلُّ كتاب في عمل اليوم الليلة، وهو كتاب «**عمل اليوم والليلة**» وقد طبع قديمًا في الهند، وأُعيد طبعُه طبعاتٍ كثيرة، وقد نصَّ جماعة من أهل العلم على أنَّ أجلَّ كتابٍ في عمل اليوم والليلة هو كتاب ابن السُّنِّي – عليه رحمة الله –، وألَّف بعدهم جماعة منهم أبو نعيم لكنَّه غير موجود والمنذريُّ وغيرهم.

قال: (ثُمَّ مُلَازَمة الذِّكْر مُطْلَقًا، وَأَفْضلُه: (لَا إِلَه إِلَّا الله)).

قوله: (ثُمَّ مُلَازَمة الذِّكْر مُطْلَقًا) **أي**: ثمَّ بعد أقل الكمال، أقل الكمال ملازمة الذِّكر المقيَّد، ثمَّ بعد ذلك وهو الكمال أن يلازم الذِّكر مطلقًا **أي**: في كلِّ أحواله، وعندما نقول

مطلقًا حتَّى في النوم يكون ذاكرًا، فإن قلت كيف يكون ذلك؟ **نقول**: إنَّ من نام وهو على ذكرٍ أصبح ذاكرًا؛ لأنَّه يكتب له أجر ما خَتم عليه نهاره، وقد جاء في ذلك بعض الأخبار.

ثمَّ قال: (وَأَفْضلُه: (لَا إِلَه إِلَّا الله).) **أي**: وأفضل الذِّكر هو: لا إله إلَّا الله على سبيل الإجمال، والدليل على كونه أفضلَ الذِّكر ما جاء عند التِّرمذيُّ وحسَّنه أنَّ **النَّبيَّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قال**: «**أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، وفي لفظٍ عند أحمد من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ **النَّبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قال**: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ أَفْضَلُ الْحَسَنَاتِ».

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَد تَعرِض أَحْوَالٌ يَكُون بَقِيَّة الذِّكْر مثل: (سُبْحان الله، وَالحَمْد لله، والله أَكْبر، وَلَا حَوْل وَلَا قُوَّة إِلَّا بِالله) أَفْضَلَ مِنه).

هذه الكلمات الأربعة التي ذكرها المصنِّف هي من الباقيات الصالحات، وقد ذكر عَزَّ وَجَلَّ الباقيات الصالحات في موضعين من كتابه، **فقال** جَلَّ وَعَلَا: ﴿**وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا**﴾ [الكهف:٤٦]، **وقال** جَلَّ وَعَلَا: ﴿**وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا**﴾ [مريم:٧٦]، وهذا يدلُّنا على أنَّ هذه الباقيات الصالحات المراد بها هذه الكلمات الأربع أو الخمس: "لا إله إلَّا الله" و"سبحان الله" و"الحمد لله" و"الله أكبر" و"لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله"، كذا جاء تعدادها خمسًا في حديث أبي سعيد، وجاء في حديث غيره أنَّها أربع، وعلى العموم فإنَّ ذكر الأربع هو من باب ذكر بعض صور العامِّ، ليس من باب التخصيص عليها، وهذه الكلمات الخمس عمومًا الأربعة التي ذكرها المصنِّف وقبلها "لا إله إلَّا الله" هي أفضل كلامٍ يَتكلَّم به العبد بعد القرآن، أفضل كلام تتكلَّم به هذه الباقيات الصالحات، فهي خيرٌ ثوابًا أجرًا عند الله، ﴿**وَخَيْرٌ أَمَلًا**﴾ **يعني**: يعطيك الله عَزَّ وَجَلَّ بها ما تأمل

وإن لم تطلب «مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مُسَائَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مِمَّا أُعْطِي السَّائِلِينَ» كما في الحديث عند النسائي من حديث أبي سعيد، وهي ﴿وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ أي: في عاقبة أمرك في الدنيا وفي الآخرة، كما قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لفاطمة وزوجها علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَلَا أَدُلُّكُمَا عَلَى خَيْرٍ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ تُسَبِّحَانِ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَتَحْمُدَانِ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَتُكَبِّرَانِ اللهَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ» فالباقيات الصالحات خيرٌ مردًّا في الدنيا وخيرٌ مردًّا في الآخرة، لكن أحيانًا تكون سبحان الله أفضل من لا إله إلَّا الله مثل: السجود والركوع، فإنَّ السجود والركوع سبحان الله أفضل، الحمد لله تكون أفضل في قراءة الفاتحة، وتكون أفضل عند افتتاح الكلام، فتفتتح حديثك وخطبتك بحمد الله، "لا حول ولا قوة إلَّا بالله" عند الاستعانة، مثل: عندما تسمع "حيَّ على الصلاة" الحوقلة عند سماعك لهما فإنَّك تقول: لا حول ولا قوة إلَّا بالله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ثُمَّ يَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا تَكَلَّم بِهِ اللِّسانُ وَتَصَوَّرَه القَلْبُ مِمَّا يُقَرِّبُ إِلى الله مِنْ تَعَلُّم عِلْمٍ، وَتَعْلِيمه، وَأَمْرٍ بِمَعْروفٍ، وَنَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ: فَهُو مِن ذِكْرِ الله).

۞ **هنا عندنا مسألتان نمرُّ عليهما بسرعة،**

۞ **الأولى قوله**: (ثُمَّ يَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا تَكَلَّم بِهِ اللِّسانُ وَتَصَوَّرَه) انتبه هنا **لقول المصنِّف**: (وَتَصَوَّرَه) العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَى **يقولون**: «إنَّ ذكر الله عَزَّوَجَلَّ نوعان: ذكرٌ باللسان وذكرٌ بالقلب» فأمَّا ذكر اللسان **فهو**: التلفظ وأقل التلفّظ على قول بعض أهل العلم أن يُسمع نفسه، **وقال بعضهم** وهو الأقرب: «أن يحرِّك لسانه وشفتيه».

۞ **الأمر الثّاني**: ذكر القلب، والمراد بذكر القلب هو التصوُّر للمعاني إذْ لا يوجد كلام نفسي، ما في شيء عندنا كلام نفسي، وإنَّما هو أن تتصوَّر معنى لا إله إلَّا الله، ما معنى سبحان

الله؟ ما معنى الله أكبر؟ في المسند أنَّ **النبيَّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قال** لعلي بن حاتم: «**يَا عَلِيُّ أَتَعْلَمُ مَا مَعْنَى اللهُ أَكْبَرُ؟ اللهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ**» هذا التصور للمعاني هو ذكر القلب، ولذا فأفضل الذِّكر ما واطأ فيه ذكر اللسان ذكر القلب، فإذا اجتمع المرء هذان الذكران فهو أكمل الذكر، هذا واحد.

۞ **المسألة الثانية**: بيَّن المصنِّف في هذه الجملة ما ذكرته قبل أنَّ كلَّ الأعمال الصالحة هي من ذكر الله، **فقال**: (مَنِ اشْتَغَل بِطَلَبِ العِلْم أَو جَلَسَ مَجْلِسًا يَتَفَقَّه أَو يُفَقِّه فِيه الفِقْه الَّذي سَمَّاه الله وَرَسُوله (فِقْهًا): فَهَذَا أَيْضًا مِن أَفْضَل ذِكْر الله).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَلِهَذا مَنِ اشْتَغَل بِطَلَبِ العِلْم النَّافِع بَعْد أَدَاء الفَرَائض، أَو جَلَسَ مَجْلِسًا يَتَفَقَّه أَو يُفَقِّه فِيه الفِقْه الَّذي سَمَّاه الله وَرَسُوله (فِقْهًا): فَهَذَا أَيْضًا مِن أَفْضَل ذِكْر الله.

وَعَلَى ذَلِك؛ إِذَا تَدَبَّرت لَم تَجِدْ بَين الأَوَّلين فِي كَلِمَاتِهم فِي أَفْضَل الأَعْمالِ كَبِيرَ اخْتِلافٍ).

وذلك لأنَّ الأعمال التي ذكرت بينها تداخل واشتراكٌ في الذِّكر بالخصوص، ومن منهج الشَّيخ تقي الدين دائماً هو أنَّه يجعل الاختلاف دائمًا اختلاف تنوع وليس اختلاف تضادٍّ، ويحرص دائمًا على جمع أقوال السلف المتقدِّمين فيجعله قولًا واحدًا، فمن اختلاف تنوع **أي**: باختلاف الأحوال وهكذا.

قال: (وَمَا اشْتَبَه أَمْرُه عَلَى العَبْد فَعَلَيْه بِالاستخارة المَشْروعة؛ فَمَا نَدِمَ مَنِ اسْتَخَار الله تَعَالى).

هنا ذَكر المصنِّف صورة من صور الدعاء وهو الاستخارة، إذ الاستخارة من الدعاء، قد

لا يكون دعاء طلب لشيء وإنَّما طلبُ خيارة، **وقوله**: (المَشْروعة) **أي**: الواردة عن النبيِّ ﷺ وقد وردت صيغ أصحُّها ما في «**الصحيح**» من حديث جابر أنَّ **النبيَّ** ﷺ: «كَانَ يُعَلِّمُهُمْ الاِسْتِخَارَةَ كَمَا يُعَلِّمُهُمْ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ» وفيه أن **يقول**: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ فَإِنَّكَ تَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ وَتَقْدِرُ وَأَنَا لَا أَقْدِرُ وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي أَوْ قَالَ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ» هنا في قوله: «أَوْ قَالَ» **ذكر جماعة ومنهم النووي** وهو ظاهر الحديث: «أنَّ هذا من باب اختلاف الرواية»، فعلى ذلك يجوز لك أن تقول الكلمة الأولى ويجوز لك أن تقول الكلمة الثانية، والأفضل ألَّا تجمع بينهما، لأنَّ الأصل أنَّ الأدعية المقيَّدة بزمان أو بمكان أو بعدد أو بفضل الأصل فيها التوقيف، كما في **حديث البراء** المتقدِّم معنا وفيه: «آمَنْتُ بِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ» لمَّا **قال البراء**: «وَآمَنْتُ بِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ» **قال النبيُّ** ﷺ: «لا قُلْ آمَنْتُ بِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ» فدلَّنا على التوقيف.

قال: (فَمَا نَدِمَ مَنِ اسْتَخَارَ اللهَ تَعَالى).

قوله: (فَمَا نَدِمَ مَنِ اسْتَخَارَ اللهَ تَعَالى) هذا ورد فيه خبرٌ عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رواه الطبراني في معجمَيه «**الصغير**» و«**الأوسط**».

قوله: (وَلْيُكْثِرْ مِنْ ذَلِكَ) **أي**: وليكثر من الاستخارة، فيشمل **أمرين**: ففي كلِّ أمرٍ له يستخير، يحرص المرء على أن يستخير في كلِّ شيء حتَّى في أمور الدنيا، تريد أن تذهب مع طريق ترددت على طريقين استخر الله وأنت في السيارة، وقد جاء في لفظ عند التِّرمذيِّ من

حديث أبي أيوب «أَنَّ مِنْ أَلْفَاظِ الِاسْتِخَارَةِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ خِرْنِي» حتَّى في السيارة اللهم خِر لِي، اللهم خِر لِي إلى يمين أو يسار، استخر ما الذي يضرك؟ هو عبادة تتعبد الله عَزَّوَجَلَّ بها، هذا واحد.

۞ **الأمر الثاني**: في قوله: (وَلْيُكْثِرْ مِن ذَلِك) يشمل الأمر الواحد أكثر من الاستخارة فيه مرتين وعاشر وعشرين، لأنَّه دعاء والله عَزَّوَجَلَّ يحبُّ الملح في الدعاء وربَّما لم يُستجب دعاؤك فيكتب لك الخيرَة إلَّا بعد الدعاء الثالث أو العاشر الله أعلم به.

۞ **وثمرة الاستخارة أمور:**

- **الأمر الأول**: الأجر.
- **الثاني**: تعلُّق القلب بالله عَزَّوَجَلَّ وانقطاعه عن أسباب الدنيا.
- **الثالث**: أنَّك تدعو الله عَزَّوَجَلَّ أن ييسر لك ويكتب لك ما اختاره سبحانه، فإذا أجيب دعاؤك فإنَّ الله سيكتب لك الخيَرة، ارتاح قلبك أو لم يرتح، أقبلت عليه أو لم تُقبل، ولذلك **قال**: «وَلْيَمْضِ» **النبيُّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يقول**: «وَلْيَمْضِ بِأَمْرِهِ» **ولم يقل**: ينظر في قلبه ومنشرح له صدره.

قال: (وَمِن الدُّعاء؛ فَإِنَّه مِفْتَاح كُلِّ خَيْرٍ، وَلَا يَعْجَل فَيَقول: (دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي)).

وقد ثبت في «**الصحيحين**» من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ **النبيَّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قال**: «**يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يُعَجِّلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي**».

(وَلْيَتَحَرَّ الأَوْقَات الفَاضِلَة؛ كَآخِرِ اللَّيْل، وَأَدْبَارِ الصَّلَوات، وَعِنْد الأَذَان، وَوَقْتِ نُزُول المَطَر، وَنَحوِ ذَلك).

هذه بعض الأوقات الفاضلة وورد غيرها كالسفر والصوم وغيره، وعندنا هنا في مسائل آخر الليل واضح وهو الثلث الأخير من الليل، وعبَّر المصنِّف بـ"اللَّيْل" على النزاع منتهى الليل.

(وَأَدْبَارِ الصَّلَوات) مرَّ معنا أنَّ المصنِّف يرى أنَّ دُبر الصلوات الذي يستجاب موضع استجابة الدعاء ما كان قبل السَّلام فتدعو قبل السَّلام، ومن أهل العلم من يرى أنَّه يكون دُبر الصلوات **أي**: بعد السلام لكن بشرط أنَّ الفريضة لا تدعو مباشرةً بعدها وإنَّما تذكر الأذكار الواردة عن النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في حديث ثوبان وعبد الرحمن بن عوف وعائشة وغيرها من الأحاديث ثمَّ بعد ذلك تدعو.

وقول المصنِّف: (وَعِنْد الأَذَان) ورد فيه أكثر من حديث، والمراد بـ "عِنْد الأَذَان" أي: وقت الأذان وبعده، يشمل **الأمرين**: وقت الأذان وبعده، وقد جاء في ذلك بعض الأحاديث التي تدلُّ على أنَّه عند الأذان مذكورةٌ في أماكن في محله، **ومثله**: وقت نزول المطر إلى آخره.

قال: (وَأَمَّا أَرْجَح المَكَاسب).

هذا هو السؤال الثالث، وهو ما هو أرجح المكاسب؟ ومراده بأرجح المكاسب **أي**: كسب الدنيا، ما هو أفضل وسيلة كسب رزقٍ؟ وهذه يذكرها الفقهاء في أوَّل «**كتاب البيع**»، **وقد قال بعضهم**: «أنَّ أفضل المكاسب الزراعة» لأنَّ العبد يكون متعلِّقا بالله، **وقال بعضهم**: «بل إنَّ أفضل المكاسب التجارة»، **وقال بعضهم**: «بل أفضل المكاسب الشركة» لأنَّ فيها صدق **وقد جاء في الحديث**: «**أَنَا ثَالِثُ الشَّرِيكَيْنِ إِذَا صَدَقَا وَبَرَّا**»، **وقيل**: «الصيد» لأنَّه كسب لمباح، **وقيل**: غير ذلك.

قال: (وَأَمَّا أَرْجَح المَكَاسب: فالتَّوَكُّل على الله، وَالثِّقَة بِكِفَايَتِه، وَحُسْن الظَّنِّ به).

هنا اِلتفاتٌ من المصنِّف أو المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى إلى أنَّ المَكسب الطيِّب ليس باعتبار صفة الكسب، وإنَّما فعل القلب، فيجب أن تعتني بقلبك بثلاثة أمور، وكنت أنوي أن أفصِّل في هذه الأمور الثلاثة لكن ضاق الوقت، وهي: التوكُّل، والثِّقة بكفايته، وحسن الظَّنِّ به، وهذه الأمور الثلاثة بينها تلازم، والأمر بالتوكُّل على الله كثير، ومرَّ معنا بعض الآية، وأمَّا الثِّقة بكفايته فقد جاء الأمر بها في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ﴾ [البقرة:١٣٧] فمن وثق أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ سيكفيه كلَّما همَّه وكلَّما أراده من عدوٍ ومن جوعٍ ومن غيره فهذه هي الثِّقة بكفاية الله عَزَّوَجَلَّ، وأمَّا حسن الظَّنِّ به وهو الأمر الثالث الذي أورده المصنِّف فهو نعمةٌ عظيمة، ولذلك ثبت عن **ابن مسعود** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّه **قال**: «**وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا أُعْطِيَ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللهِ**»، **ثمَّ قال**: «**وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ لَا يُحسِنُ عَبْدٌ الظَّنَّ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ ظَنَّهُ**»، انظر حسن الظَّنِّ هذا فعل القلب، ثمَّ الثِّقة بالكفاية، ما أحسن أحدٌ الظَّنَّ بالله إلَّا أعطاه الله ظَنَّه هذه الثِّقة بكفاية الله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَذَلِك أَنَّه يَنْبَغي للمُهْتَمِّ بِأَمْرِ الرِّزْق أَنْ يَلْجَأَ فِيه إِلَى الله وَيَدْعُوه؛ كَمَا قَال — سبحانه — فِيمَا يَأْثُر عَنه نَبِيُّه: «**كُلُّكُم جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ؛ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمكُمْ. يَا عِبَادِي؛ كُلُّكُم عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ؛ فَاسْتكْسُونِي أَكْسُكُمْ**».

وَفِيما رَوَاه التِّرْمِذِيُّ عَن أَنَسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا، حَتَّى شَسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ؛ فَإِنَّه إِنْ لَمْ يُيَسِّرْهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ**»).

هذا الكلام الذي ذكره المصنِّف كلام كلُّه نور؛ لأنَّه كلام رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهذا

تكرار لما أورده المصنِّف في أوّل كلامه العظة بكلام الله وكلام رسوله، تزويق الكلام تبعٌ وليس أصل، إذا أوعظت أحدًا فذكرهم بكلام الله وكلام رسوله، احرص على هذا الأمر، كلُّ خيرٍ في كلام الله وكلام رسوله، **يقول الشَّيخ**: (يَنْبغي للمُهْتَمِّ بِأَمْر الرِّزْق أَنْ يَلْجَأَ فِيه إِلَى الله وَيَدْعُوه) لأنَّ دعاءك بأن يرزقك الله الرزق الحسن عبادة، ويرجى إجابتها، وكما جاء في الأثر الذي ذكره المصنِّف والحديث، وهذا يدلُّنا على أنَّ سؤال الرزق مهم، لكنَّ **العلماء يقولون**: «فرقٌ بين سؤال الرزق وبين سؤال ملاذ الدنيا»، وفرقٌ بين الأمرين، وقد منع أهل العلم كراهةً أو منعًا كليًّا من سؤال ملاذ الدنيا في الصلاة وأجازوا سؤال الرزق، فالرزق أن تقول: اللهم ارزقني بيتًا **أي**: سكنًا وزوجةً وولدًا فهذا رزقٌ، وأمَّا ملاذ الدنيا فلا تقول: اللهم ارزقني دابَّة هملاجة أي شيء **مثل**: أن تقول الآن: اللهمَّ ارزقني سيَّارةً فارهةً فخمةً ماتعةً، ومثله أن تذكر أوصافًا معينةً في زوجةٍ ترتغبها من أمور الدنيا، ولكن وكِّل الأمر لله، استخر، واسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يختار لك الأصلح، واسأل الله عَزَّوَجَلَّ بصفات الكمال، وصفات الكمال في المطلوب، **فتقول**: اللهمَّ ارزقني زوجةً صالحة، ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ﴾ [النساء:٣٤] **أي**: طائعات، وكذلك أيضًا في غيرها من الرزق، وفي **قول النبيِّ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**فَإِنَّه إِنْ لَمْ يُيَسَّرْهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ**» فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي ييسِّر الأرزاق ولا شكَّ مع بذل الأسباب من الآدمي.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (وَقَد قال الله – تَعَالَى – في كتابه: ﴿وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النِّساء:٣٢].

وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾ [الجمعة:١٠]؛ وَهَذَا وَإِنْ كَان فِي الجُمْعة، فَمَعْناه قَائِمٌ فِي جَمِيع الصَّلَوات).

۞ **هذه يعني: مسألتان نكتتان:**

- الشَّيخ تقي الدين عنده مبدأ أنَّ كلَّ الأحكام موجودةٌ في القرآن، ودائمًا يقرِّر هذا الأصل، ولذلك إذا أورد حكمًا في السنَّة فإنَّه يورِد أنَّ هذا الحكم أو غير ذلك من الدلائل اللغوية، ولذلك تجد هذا في أسلوبه ولغته كثير، هذا الأمر الأوَّل.
- **الأمر الثاني**: هذا استدلالٌ استدلَّ به الشَّيخ **قال**: إنَّ طلب الرزق موجودٌ في كتاب الله الآية الأولى في **قوله**: ﴿وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وفضله عامٌ يشمل كلَّ شيء، ومن فضله جَلَّ وَعَلَا الرزق ويشمل هذا جميع الأرزاق، ﴿وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ [**النحل**:٧١] فمن أن تسأل الله عَزَّوَجَلَّ رزقًا في المال، في الولد، في الصحة، في العلم، في غير ذلك من الأمور.

قال: (وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾)

قال: (وَهَذَا وَإِنْ كَان فِي الجُمْعة) **أي**: السِّياق (فَمَعْناه قَائِمٌ فِي جَمِيع الصَّلَوات) هذه القاعدة الأصولية المشهورة أنَّ العبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السبب، **وقول الله** عَزَّوَجَلَّ **هنا**: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ «الْقُرْآنُ حَمَّالُ أَوْجُهٍ» كما قال أبو الدرداء بشرطين ألَّا يخالف قرآنًا آخر وألَّا يخالف لسان العرب، **فقول الله** عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ يحتمل أن تكون عهديةً لتقدُّمِ ذكر المعهود، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ [**الجمعة**:٩]، ومعلومٌ أنَّ العهد إذا جاء بعد ذكره قبل فتكون "ال" عهدية، ويحتمل أن تكون الجنسية، فيشمل كلَّ صلاة، والمعنيَان صحيحان، وهذا الذي أراده الشَّيخ **فيقول**: (وَهَذَا وَإِنْ كَان فِي الجُمْعة، فَمَعْناه قَائِمٌ فِي جَمِيع الصَّلَوات) وعلى ذلك فالمعنى الثاني إذا قضيت كلَّ صلاةٍ من صلواتنا فانتشروا في الأرض وهو: بذل السبب وابتغوا من فضل الله الذي أمركم الله عَزَّوَجَلَّ

بسؤاله ﴿وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وملحظ ذلك في السنَّة فإنَّ السنَّة جاء فيها أنَّ المرء إذا خرج من المسجد فإنَّه يقول: «اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رِزْقِكَ وَفَضْلِكَ»، فالرزق هنا هذا هو الذي يكون بعد الخروج من الصلاة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَلِهَذا – والله أَعْلم –؛ أَمَر النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذي يَدْخُل المَسْجِدَ أَنْ يَقول: «اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ»، وَإِذَا خَرَجَ أَنْ يَقُول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ»).

نعم هو كذلك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد قال الخليلُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ العنكبوت: [١٧].

، وَهَذا أَمْرٌ، والأَمْر يَقْتَضي الإيجاب.

فالاستعانةُ بالله واللَّجأُ إِلَيْه – فِي أَمْر الرِّزْق وَغَيْره – أَصْلٌ عظيمٌ).

هذا ملحظ جميل من الشَّيخ أنه ذكر قول إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما فيه من شبهٍ أو لما في معاذٍ من شبهٍ به من حيث الاقتداء وتعليم الناس الخير وقد أمر الخليل المسلمين والحنيفيين بأن يبتغوا عند الله الرزق وأن يعبدوه ويشكروا له، وهذا يقتضي الإيجاب، فالله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي يبتغي عنده الرزق، ويكون ذلك بتعلّق القلب والدعاء.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ثُمَّ يَنْبغي لَه أَنْ يَأْخذَ المالَ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ لِيُبَارَك له فيه، وَلَا يَأْخُذُه بِإِشْرَافٍ وَهَلَعٍ؛ بَل يَكُون المَالُ عِنْده بِمَنْزلة الخَلَاء الَّذي يَحْتَاج إِلَيْه مِن غَيْرِ أَنْ يَكُون له في القَلْب مَكانةٌ، والسَّعْيُ فيه إِذَا سَعَى كإصلاح الخلاء).

يقول الشَّيخ: (ثُمَّ يَنْبغي لَه) **أي**: للمسلم (أَنْ يَأْخذَ المالَ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ لِيُبَارَك له فيه) هذه أخذها من الحديث الذي في «**صحيح البخاري**» من حديث حكيم بن حزام: «**أَنَّهُ لَمَّا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَعْطَاهُ ثُمَّ سَأَلَ فَأَعْطَاهُ ثُمَّ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: يَا حَكِيمُ إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ**»، **وقول النبيِّ** صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: «**فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ**» ذكر شُرَّاح الحديث أنَّ لها **معنيين**:

- **المعنى الأوَّل**: أن يكون أنَّه يحتمل أنَّ المراد «**بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ**» أخذ سخاوة نفس آخذ، فحينئذٍ يكون الآخذ قد أخذ هذا المال من غير إلحاحٍ ولا طلبٍ ولا شرهٍ في تحصيله، وهذا معنى سخاوة نفس المتحصل على المال.
- **والمعنى الثاني**: وهو محتمل أيضًا ولا يوجد ما يمنع من صحته، أن يكون **مراد النبيِّ** صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ**» **أي**: مِن بادر المال ومعطيه، وحينئذٍ فيكون باذل المال قد أعطاه بانشراح نفسٍ منه، ليس بإكراه ولا بإلحاح، فهو يعود بطريقةٍ أو بأخرى لنوع الطلب الذي تحصل به محصِّل المال.

إذن: «**فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ**»، وبركة المال أمرٌ مهم، فإنَّ المال لا عبرة بكثرته، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد ذكر في كتابه أنَّه يمدُّ للكافرين مدًّا **أي**: يكثر أموالهم، ليست بركة المال بكثرته، وإنَّما بركة المال بأمور خمس منها ذكرها العلماء، أنَّه يستخدم المال في طاعة الله، ولا يستخدمه في حرام، من استخدم ماله في حرام فليعلم أنَّ بركة المال فيه قليلة، الثاني أنَّ المراد ببركة المال بركته بحيث: أن يكون قليله كافيًا، فلا يحتاج لسؤال الناس، ولا يحتاج إلى طلبهم، ويستغني بما رزقه الله عمَّا في أيدي الناس، كافيًا لطعامه، كافيًا ليملأ قلبه ويملأ

قلب أهله، بعض الناس عنده مال لكن أهله لا يكفيهم هذا المال يريدون أكثر، ليعلم أنَّ العيب فيه هو وليس في أهله، فليراجع نفسه في ماله، وهكذا أمور أخرى مذكورة في غير هذا المكان، هذا ما يتعلَّق **بقوله**: (لِيُبَارَك له فيه).

قال: (وَلَا يَأْخُذُه بِإِشْرَافٍ وَهَلَعٍ) الإشراف هو تطلع النفس، وتعرضه له، وهلع: شره لتُحصِّل المال.

قال: (بَل يَكُون المَالُ عِنْده) هذا من كلام الشَّيخ (بِمَنْزِلة الخَلَاء) لابدَّ من تحصيل المال كما **قال بعضهم**: «نِعم المال الذي يستغني به عن أنذال الناس» إنَّ مِن أشدِّ ما يقع في نفس المرء أن يحتاج لمالٍ بيد غيره فيسأله قرضًا أو صدقةً أو إحسانًا، ولذلك نِعم المال بيد العبد المؤمن المراد به هذا الذي يغنيه عن الناس، ليس المراد **بقول بعضهم**: «نِعم المال بيد الرجل الصالح» المكاثرة، لا والله ليس هذا المراد، وإنَّما المُراد ما يستغني به عن الناس، وليس المراد ما يكاثر به ويزيد.

قال: (يَكُون المَالُ عِنْده بِمَنْزِلة الخَلَاء الَّذي يَحْتَاج إِلَيْه مِن غَيْرِ أَنْ يَكُون له في القَلْب مَكانةٌ) الكلام الذي يقوله سهلٌ نطقه، أمَّا تطبيقه والله صعب ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ [آل عمران:١٤] ابن آدم لو كان له واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثًا، هذا الذي يصل إلى ما ذكره الشَّيخ نقلًا عن السلف، هذه مرحلة عالية، هذه مرحلة ينالها المرء بالمجاهدة، ليس تحضر درس ثمَّ تخرج فتكون كذلك لا، هذا تأثر وقتي، من لازم محبوب الله عَزَّوَجَلَّ من الطاعات، من لازم ذكر الله من كلامه والثناء عليه ودعاءه، هذا الذي ينعم الله، الله هو المنعم عليك، الله هو المتفضِّل عليك بأن

يجعل حب المال في قلبك خارجك، حضر المال ذهب، ربحت تجارتك خسرت، تعلُّقك بالله هذه نعمة، إنَّما تحتاج من المال البلغة، نحن نتكلَّم عن أقوامٍ أنا أوَّل من أتحدث عن نفسي لست أقاربهم فلا أتهم غيري وأنا بريء وأنا واقعٌ في الشيء، ولكن الإنسان يجب أن يكون عالمًا أن أولئك القوم إنَّما سبقوا كونهم مفرِّدين فانفرد حب الله في قلوبهم له سبحانه، بذكرهم ومتابعتهم النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الطاعات فأدَّى ذلك بخلوص أفعال قلوبهم للجبَّار جَلَّ وَعَلَا، هذا أفعال القلوب الذي تكلمت عنها قبل قليل.

قال: (والسَّعْيُ فيه إِذَا سَعَى كإصلاح الخلاء) واضح هذا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَفِي الحَدِيث المَرْفُوع الَّذي رواه التِّرمذيُّ وَغيْره: «**مَنْ أَصْبَحَ وَالدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمِّهِ؛ شَتَّتَ اللهُ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ أَصْبَحَ وَالآخِرَةُ أَكْبَرُ هَمِّهِ؛ جَمَعَ اللهُ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَجَعَلَ غِنَاه فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ**».

وَقَال بَعْض السَّلَف: «أَنْت مُحْتَاجٌ إِلى الدُّنْيا، وَأَنْت إِلَى نَصِيبكَ مِن الآخرة أَحْوَج؛ فَإِنْ بَدَأْت بِنَصِيبك من الآخرة مُرَّ عَلَى نَصِيبك مِن الدُّنْيا فَانْتَظِمْه انْتِظَامًا».

قال الله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾ [**الذَّاريات**]).

الله أكبر هذه الآية فيها أنَّ الأصل عبادة الله عَزَّوَجَلَّ وأنَّ الله مستغني عن العباد، استشعر هذا الأمر، وأنَّ الله هو الرزاق ذو القوة المتين هذه دلالة تسمَّى دلالة السياق والاقتران، دلالتان بينهما تقارب دلالة السياق والاقتران، فدلَّ ذلك أنَّ كمال العبادة أن تعلم أنَّ الرزق من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَأَمَّا تعْيين مَكْسَبٍ عَلَى مَكْسَبٍ، مِن صِنَاعةٍ، أَو تِجَارةٍ، أَو بِنَايةٍ، أَو حِرَاثَةٍ، أو غَيرِ ذَلك: فَهَذا يَخْتَلِف بِاخْتِلَاف النَّاس، وَلَا أَعْلَم في ذلك شَيْئًا عَامًّا).

قول: (وَلَا أَعْلَم) أي: لا أجزم وإلَّا فالخلاف مشهور، وقد نقله في غير هذا المكان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لَكِن إِذَا عَنَّ لِلإنسان جِهَةٌ فَلْيَسْتَخِرِ الله – تَعَالى – فِيها الاستخارةَ المُتَلَقَّاة عَن مُعَلِّمِ الخَير صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ فَإِنَّ فيها مِن البَرَكَة مَا لَا يُحَاط به.

ثُمَّ مَا تيَسَّر لَه فَلا يَتكَلَّف غَيْرَه، إِلَّا أَنْ يَكُون مِنه كَرَاهةٌ شَرْعِيَّةٌ).

مع قول المصنِّف: (فَإِنَّ فيها) في الاستخارة (مِن البَرَكَة مَا لَا يُحَاط به) لا شكَّ لأنَّك تدعو فتقول: إن كنت تعلم أنَّ هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي فاكتبه لي – هذا التقدير – ويسره لي – فيصبح يسيرًا – وبارك لي فيه، **انظر**: وبارك لي فيه، فإذا بارك الله عَزَّوَجَلَّ لك في الخير فهذه ما لا يحيط به البشر، فالبركة من الله ولا يعلم كمالها إلَّا هو سبحانه، إلَّا أن يكون في ما استخاره فيه كراهةٌ شرعية، كراهة **يعني**: كراهة ندب، كراهة **يعني**: غير إلزام، فهذه الأولى بأهل العلم أن يبتعدوا عن ما فيه كراهة شرعية، **على سبيل المثال**: أجرة الحجَّام «**جَاءَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنْ أُجْرَةِ الْحَجَّامِ**» وقد ثبت: «**أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ احْتَجَمَ فَأَعْطَى الْحَجَّامَ أُجْرَةً وَهُوَ أَبُو طَيْبَةَ**» فدلَّ على أنَّها مباحة، ومع ذلك لمَّا سئل عن أجرة الحجَّام **قال**: «**أَعْلِفْ نَاضِحَكَ**» أي: لا تأكل منها شيئًا وإنَّما أعطها الغلام أو الناقة التي تأتيك بالماء، فدلَّ ذلك على أنَّ أجرة الحجَّام ليست فاضلة ففيها كراهة، ليست كراهة تحريم وإنَّما كراهة دون ذلك، ومثله كثير من الأعمال وخاصةً ما يكون في ذلك الكسب وسيلة من باب

الوسائل المفضية لأمر محرم.

قال: (وَأَمَّا مَا تَعْتمد عَلَيْه مِن الكُتُب في العلوم).

هذا السؤال الرابع والأخير وهو: الكتب التي يعتمد عليها في العلوم عمومًا وكتابٌ واحدٌ في الحديث.

قال: (**وَأَمَّا مَا تَعْتمد عَلَيْه مِن الكُتُب في العلوم**: فَهَذا بَابٌ وَاسعٌ.

وهو –أَيْضًا– يَخْتَلِف بِاخْتِلاف نَشْءِ الإِنْسان في البلاد؛ فَقَد يَتَيَسَّر له في بعض البلاد من العِلْم أو من طَرِيقِه وَمَذْهبِه فيه ما لا يَتَيَسَّر له في بلدٍ آخر).

هذه كلمة جميلة من الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى أذكر تعليقًا يسيرًا عليها **يقول**: إنَّ كتب العلم باب واسع لا يمكن الإحاطة به ولا يمكن أن أعطيك كتابًا يغنيك عن جميع الكتب في العلوم، وهذا السؤال دائمًا يكرِّره طلبة العلم ما هو الكتاب في الفقه الذي أستغني به؟ لا يوجد، في الأصول لا يوجد، وفي اللغة كذلك، وهو (يَخْتَلِف بِاخْتِلاف نَشْءِ الإِنْسان في البلاد) وسبب النشء في البلاد قد يتوفر في بعض البلاد كتب ليست متوفرة في بلاد آخر، إضافةً إلى أنَّ البلدان تختلف في المعتمد عندهم في الإقراء والتدريس، وهذا ملحظ ينبه عليه أهل العلم سماعًا وكتابةً، سماعًا في ما يتلقاه المرء من أشياخه، وكتابته فيما موجود عند العلماء الأوائل أنَّ الإنسان لا يغرب عن أهل بلده في التعلُّم، فما يقرؤه أهل بلده يمشي عليه ولا يغرب عليه، نعم يتوسع لكن لا يغرب في ابتدائه لكي لا يصعب عليه العلم.

قال: (أَو من طَرِيقِه وَمَذْهبِه فيه) وهذه المسألة مشهورة في قضية التي أشرت إليها قبل قليل.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لَكِن جِمَاعُ الخَيْر: أَنْ يَسْتَعِين بالله – سُبحانه – فِي تَلَقِّي العِلْمِ المَوْرُوثِ عَن النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ فَإِنَّه هو الَّذي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسَمَّى (عِلْمًا).

وَمَا سِواه:

- إِمَّا أَنْ يَكُون عِلْمًا؛ فَلا يَكُون نَافِعًا.
- وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُون عِلْمًا وَإِنْ سُمِّي بِه.

وَلَئِنْ كَان عِلْمًا نَافِعًا فَلا بُدَّ أَنْ يَكُون فِي مِيراث مُحَمَّدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مَا يُغْني عَنه مِمَّا هُو مِثْلُه وَخَيْرٌ مِنه).

واضح هذا الكلام.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَلْتَكُن هِمَّتُه: فَهْمَ مَقَاصد الرَّسُول في أَمْرِه وَنَهْيه وَسَائِر كَلَامه.

فَإِذَا اطْمَأَنَّ قَلْبُه أَنَّ هَذا هُو مُرَاد الرَّسُول فَلا يَعْدِل عنه فِيما بَيْنَه وَبَين الله – تَعَالى – وَلَا مَع النَّاس إِذَا أَمْكَنه ذَلِك).

هذه المسألة لطيفة جدًا في **قوله**: (وَلْتَكُن هِمَّتُه: فَهْمَ مَقَاصد رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ) فليس العناية بالحديث فقط حفظ الألفاظ، بل لابدَّ من فهم المعاني وهي: المقاصد، فالمقاصد هنا المراد بها المعاني التي قصدها النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في ألفاظه، وهذه المعاني مكشوفة ومعروفة بيَّنها أهل العلم وقسموها أنواعًا فإنَّ هناك مقاصد عامة ومقاصد كليَّة ومقاصد جزئية، وأنواعها مختلفة وتختلف باختلاف الباب الذي هو فيه فهي ثلاثة أنواع من

المقاصد، وهذا معنى **قوله**: (فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَسَائِرِ كَلَامِهِ) **وقوله**: (وَسَائِرِ كَلَامِهِ) يشمل الأخبار بالمغيبات، ويشمل أيضًا الإخبار السابق واللاحق ونحو ذلك.

قال: (فَإِذَا اطْمَأَنَّ قَلْبُهُ) هذه مسألة اطمئنان القلب مهمة، **وقد جاء في الحديث**: «**اسْتَفْتِي قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ**» أخذ العلماء من ذلك أنَّ من نظر في السنَّة فله **حالتان**:

۞ إمَّا أن يكون مجتهدًا كامل الآلة؛ فإنَّ المجتهد كامل الآلة إنَّما يترجح له بعد اطمئنان قلبه، وهذا واضح ولا شكَّ فيه.

۞ وأمَّا غير المجتهد وهو الذي يستفتي غيره من العلماء فيأخذ قوله.

فقد **ذكر العلماء** رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى: «أنَّ من استفتى غيره من العلماء فلم تسكن نفسه لقول ذلك العالم مع جهله بدليله وجهله بمستنده في المسألة أو جهله بالخلاف في المسألة. فهل يلزمه أن يسأل غيره حتَّى تسكن نفسه أم لا؟» هذه فيها وجهان لأهل العلم، وقد ذكر المحقِّقون كابن حمدان في «**صفة المفتي والمستفتي**» وجماعة المرداوي وغيره «أنَّه يلزمه أن يكرِّر الاستفتاء حتَّى تسكن نفسه»، والمراد بعدم سكون النفس ليس الشك الذي يرد عند الموسوس وليس نحو ذلك، وإنَّما المراد بسكون النفس أن يعلم أنَّ هذا ليس مخالفًا لنصٍ من الحديث، وهذا هو الصواب إن شكَّ في كونه مخالفًا لحديث أو سنَّة فيَحرم عليه الأخذ بهذه الفتوى لأنَّ نفسه لم تسكن إليه، وهذا **معنى قوله**: «**اسْتَفْتِي قَلْبَكَ**»، ولذا عندما **يقول بعض الناس**: «اجعل بينك وبين النار مفتيًا، وامش في طريقه واجعله حجابًا لك بينك وبين النار»، **نقول**: هذا غير صحيح، **فإنَّ في الحديث**: «**اسْتَفْتِي قَلْبَكَ**»، لمن كان قلبه مؤمنًا وليس شاكًّا موسوسًا، وكان عنده طرف علمٍ بنص، مَن جهل النصَّ فلا استفتاء بقلبه فحينئذٍ يلزمه

التقليد لمن وثق في دينه وعلمه.

قال: (وَلْيَجْتَهِدْ أَنْ يَعْتَصِمَ فِي كُلِّ بَابٍ مِن أَبْوابِ العِلْمِ بِأَصْلٍ مَأْثُورٍ عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

هذا مهم وتكلَّم عنها أهل العلم أن تحرص على أنَّ كلَّ بابٍ ترجع لأصله، فأبواب الفقه كلُّ باب ارجع للأحاديث الأصول فيها، احرص على حفظ الأصول في كلِّ أبواب العلم، بعض طلبة العلم يحفظ المتن كاملًا من المختصرات ولا يعرف أدلتها ولا يعرف مستندها، احرص على أن تعرف في كلِّ باب ما هو الأصل، وقد عُني العلماء بذكر أصل كلِّ الأبواب.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَإِذَا اشْتبَه عَلَيه مِمَّا قَد اخْتَلَف فيه النَّاس فَلْيَدْعُ بِمَا رَواه مسلمٌ في «صَحِيحه» عن عائشةَ أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَان يَقُول إِذَا قام يُصَلِّي من اللَّيْل: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيه مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»).

هذا الحديث والدعاء الذي كان يدعو به النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو تأويل القرآن كما في سورة البقرة حينما **قال الله** عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً**﴾ [**البقرة:٢١٣**] **أي**: كانوا أمة واحدة فافترقوا واختلفوا كما جاء في سورة يونس، ثمَّ **ذكر الله** عَزَّ وَجَلَّ أنه قد بعث ﴿**النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ**﴾ إلى آخر الآية، ثمَّ يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم، هذا الدعاء الذي جاء النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يدعو فيه به قيام الليل هو مظِنَّة إجابة الدعاء لأنه في قيامه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الليل، والداعي به إمام المتقين الذي ينزل عليه الوحي صبحًا وعشيًا ومع

ذلك دعا أن يريه الله الحق حقًا ويرزقه اتباعه «اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»، **قال ابن القيِّم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى: «حقيق بالمفتي أن يكثر من الدعاء بهذا الذِّكر الذي ورد عن النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» **قال ابن القيِّم**: «وكان شيخنا – **يعني**: به الشَّيخ تقي الدين مؤلف هذه الرسالة – يكثر من هذا الدعاء وكانت إذا أشكلت عليه المسألة يأتي بالأثر الوارد عن **معاذ بن جبل**: «اللَّهُمَّ يَا مُعَلِّمَ آدَمَ عَلِّمْنِي وَيَا مُفَهِمَ سُلَيْمَانَ فَهِّمْنِي» الإنسان محتاجٌ للدعاء حتَّى في العلم الشرعي أن يدلك الله عَزَّوَجَلَّ على أحب العلوم فيفقهك فيها، أن يدلك على من يدلك طريق الصواب من شيخٍ وكتاب، أن يبارك في وقتك أن يريك الحق حقًا في اجتهادك وفي من تستفتي وفي غير ذلك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَإِنَّ الله – تَعالى – قَد قَال فِيما رَوَاه عَنه رسوله: «يَا عِبَادِي؛ كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ؛ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ».

وَأَمَّا وَصْف الكُتُب وَالمُصَنِّفين: فَقَد سُمِعَ مِنَّا فِي أَثْنَاء المُذَاكرة مَا يَسَّره الله – سُبحانه).

هذا الكلام ما معناه؟ **يقول**: (وَأَمَّا وَصْف الكُتُب وَالمُصَنِّفين) والأنسب وميزة كلِّ امرئٍ فهذا ذكرناه.

قال: (فِي أَثْنَاء المُذَاكرة) ومراد المصنِّف: (فِي أَثْنَاء المُذَاكرة) **يعني**: عندما نتكلَّم استطرادًا المذاكرة تأتي استطرادًا لا قصدًا، ولذلك قد تستفيد ممَّا يكون في المذاكرة من النكت ما لا تجدها فيما يقصد ابتداءً، وهذا يستفاد من مجالسة أهل العلم ومذاكرتهم، والشَّيخ تقي الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى كثير من كلامه كان مذاكرة ثمَّ يعرض عليه فيُقرأ عليه فيقره

أو يزيد فيه وينقص نبَّه على ذلك ابن عبد الهادي في «**العقود**».

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَمَا فِي الكُتُب المُصَنَّفة المُبَوَّبَة كِتَابٌ أَنْفَعُ من «صَحِيح مُحَمَّدِ بنِ إسماعيلَ البُخاريِّ»، لكن هُو وَحْدَه لَا يَقومُ بِأُصول العِلْم، وَلَا يَقُومُ بِتَمَام المَقْصُود لِلمُتَبَحِّر فِي أَبْوَاب العِلْم؛ إِذْ لَا بُدَّ مِن مَعْرِفة أَحَادِيث أُخَر).

يقول المصنِّف لمَّا سُئِل ما هو كتاب حديث يغنيه عمَّا بعده؟ **قال**: (ما أعلم كتابًا أَنْفَعُ من «صَحِيح مُحَمَّدِ بنِ إسماعيلَ البُخاريِّ») الجعفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى، هذا الكتاب فيه من الميزات ما لا يوجد في غيره:

- فإنَّه قد شرط الصحيح ووفى بما شرط على نفسه، بل كان شرطه أعلى من شرط غيره في الصحيح.
- **الأمر الثاني**: أنَّه أجاد التبويب.
- **الأمر الثالث**: أنَّه لم يتكلَّم فيه برأيه، وإنَّما أورد رأي السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَى في التبويب ولم يرده في الكلام.
- **الأمر الرابع**: أنَّه أجاد التبويب في الدلالة على بعض المعاني والفهم، وكثيرٌ من تبويبه لا جزم فيه، وإنَّما فيه إشارات للمعاني.
- **الأمر الخامس**: أنه أحسن تقسيم الأبواب، فجعل الحديث ربَّما يورد في أكثر من موضع.

وقد عُني العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَى في تتبع طريقة البخاري في تبويبه وفي تجزأته الأحاديث وفي شرطه، فألَّفوا في ذلك شيئًا عظيمًا ممَّا يدلُّ على ما وفق الله وامتنَّ الله على البخاري فيما فعله في صحيحه.

ثمَّ قال: لا يكفي هذا في الحديث لا يغني قطعًا، أمَّا أحاديث الأحكام فقد ذكر جماعة ومنهم الشَّيخ تقي الدين نفسه: «أنَّ أغلب أحاديث الأحكام التي يحتاجها الناس موجودة في الكتب الستة» «**البخاري**» و«**مسلم**» و«**السنن**» لأبي داود و«**التِّرمذيُّ**» و«**النسائي**» و«**ابن ماجة**» بهذا الترتيب، وإن تمَّمها بـ«**مسند أحمد**» فقلَّما يخرج حديث يحتاجه الناس في الأحكام خارج عن هذه الستة والسبعة، قلَّما يندر بل هو أقلُّ من النادر، ذكر ذلك الشَّيخ الدين وهو كما قال.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَكَلامُ أَهْلِ الفِقْهِ وَأَهْلِ العِلْم فِي الأُمور الَّتي يَخْتَصُّ بِعِلْمِها بَعْضُ العلماء.

وَقَد أَوْعَبتِ الأُمَّة فِي كُلِّ فَنٍّ مِن فُنُون العِلْم إِيعَابًا).

لا شكَّ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قيَّض لهذه الأمة رجالًا اجتهدوا ففصَّلوا في جزئيات المسائل إيعابًا، نعم قد يكون ذلك له صعوبته على بعض الطلبة لكن له ثمرته، وثمرة عظيمة جداً، ولكن الوقت انتهى ونحن الآن بعد انتهاء الوقت، لعلَّنا نتكلَّم عنها يومًا آخر.

قال: (فَمَنْ نَوَّرَ الله قَلْبه هَدَاه بِمَا يُبَلِّغُه من ذلك).

نور الله عَزَّوَجَلَّ في القلب، اسأل الله عَزَّوَجَلَّ إياه أن ينير قلبك، من أنار الله قلبه عرف الحق من الباطل، من أنار الله قلبه عرف الصواب من الخطأ، من أنار الله قلبه عرف الطريق الذي يكون أخسر لمطلوبه، كم من أناسٍ أنار الله قلوبهم إمَّا بهدايةٍ أو بتوفيقٍ منه سبحانه، الأصل هو توفيقه سبحانه ابتداءً من غير سببٍ واضح، فإذا أنار الله قلبك فإنَّك تهدى، ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ [النور:٣٥] **أي**: منوِّر السماوات والأرض، فمن نوَّر الله قلبه فهو

المهـدي، فاسـأل الله عَزَّوَجَلَّ الهدايـة، واسـأل الله عَزَّوَجَلَّ الرشـاد، واسـأل الله عَزَّوَجَلَّ الطريـق المناسب لذلك.

قال: (وَمَنْ أَعْمَاه لَم تَزِدْه كَثْرةُ الكُتُب إِلَّا حَيْرَةً وَضَلَالًا).

هـذا ذكرنـاه قبـل قليـل أنَّ كثـرة التـأليف قـد تكـون سـببًا في الضـرر علـى بعـض النـاس إمَّـا صعوبةً أو ضلالةً – نسأل الله السلامة –.

قال: (كما قال النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِابن لَبِيدٍ الأنصاريِّ: «**أَوَلَيْسَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ عِنْدَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى؟! فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟!**»).

وكذلك في آخر الزمان حينما يرتفع العلم يبقى القرآن بـين أيـديهم لكـنَّهم لا ينتفعـون بـه، **فقد جاء في الحديث**: «**أَنَّنَا فِي آخِرِ الزَّمَانِ يُرْفَـعُ الْعِلْـمُ بِمَـوْتِ الْعُلَمَـاءِ وَيَتَّخِـذُ النَّـاسُ رُؤُوسًـا جُهَّالًا**» فموت العلماء يرتفع به العلم مع أنَّ القرآن يبقى لقيام السَّاعة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَنَسْأَلُ اللهَ العَظِيـمَ أَنْ يَرْزُقَنـا الهُـدَى والسَّـدادَ، وَيُلْهِمنـا رُشْـدَنا، وَيَقِيَنَـا شَـرَّ أَنْفُسِنا، وَأَنْ لَا يُزِيغ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذ هَدَانا، وَيَهَبَ لَنَا مِن لَدُنْه رَحْمةً، إِنَّه هُو الوَهَّاب.

وَالحَمْد لله رَبِّ العَالمين، وَصَلَوَاتُه عَلَى أَشْرَف المُرْسَلينَ).

اللهـم صـلِّي وسـلِّم علـى نبيِّنـا محمَّـد، فقـط أختـم في الصَّـلاة علـى النبـيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذكرت لكم أنَّ الشَّيخ رأيه أنَّ الصلاة تكون مناسبةً في الخاتمة مع الـدعاء، وعـادة أهـل العلـم أنَّهم يختمون كتبهم ووصاياهم ودروسهم بالدعاء لأنَّه بعد طاعةٍ.

فنسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يغفر ذنبنا ويستر عيبنا

و صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ على نبيِّنا محمَّد.

تَمَّ إِقْرَاءُ الكتاب فِي مجلسٍ واحدٍ
يوم السّبت في الرّابع والعشرين من شهر ربيع الأول
سَنَةَ ثلاثٍ وأربعين بَعْدَ الأَرْبَعِمِائَةِ وَالأَلْفِ
بجامع الأميرة العنود بحي الخزامة بمدينة الرياض



فوائد